د. عبد العزيز حجازي
د. عزيز صدقي
خالد محي الدين
محمد عبد السلام الزيات
محمد حافظ اسماعيل
د. اسماعيل صبري عبدالله
مراد غالب
محمد حسنين هيكل

قصة السوفيات مع مصر

اجرى الحوار
محمد عودة
فيليب جلاّب
سعد كامل



قصة السوفيت مع مصر

اجرى الحوار :

محمد عوده

فيليب جلاب

سعد كامل

دار ابن خلدون

ص٠ ب ١١٩٣٠٨ ـ بيروت ـ كورنيش المزرعة
بناية ريفييرا سنتر ـ مقابل منظمة التحرير

قصة السوفيات مع مصر



مقدمة :

اثناء الحملة على السوفيات في مصر رأى ثلاثة من كتاب مصر هم محمد عودة وفيليب جلاب وسعد كامل أن يجروا حوارات متعددة مع عدد من الذين رافقوا العلاقات المصرية ـ السوفياتية من موقع المسئولية او الاطلاع في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ٠ وهكذا انصرف الكتاب الثلاثة فعلا الى اجراء حوار محدد مع هؤلاء المسؤولين والمطلعين ، فكان هذا الكتاب الذي جمع شهاداتهم ، وهي وثائق حية وشهادة من داخل العلاقات المصرية ـ السوفياتية نفسها ٠ وهؤلاء المسئولين والمطلعين هم :

١ ـ دكتور عبد العزيز حجازي

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب وسعد كامل (آخر ديسمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٢ ـ دكتور عزيز صدقي

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب (نوفمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٣ ـ خالد محيي الدين

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب وسعد كامل (نوفمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٤ ـ محمد عبد السلام الزيات

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب وسعد كامل (ديسمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٥ ـ محمد حافظ اسماعيل

أجرى الحوار = فيليب جلاب (نوفمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٦ ــ د٠ اسماعيل صبري عبدالله

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب وسعد كامل (ديسمبر سنة ١٩٧٤) ٠

٧ ــ د٠ مراد غالب

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب (نوفمبر سنة ١٩٧٤)

٨ ــ محمد حسنين هيكل

أجرى الحوار = محمد عوده وفيليب جلاب وسعـــــد كامل (ديسمبر سنة ١٩٧٤) ٠

....

ملاحظة :

كانت دار الثقافة الجديدة في القاهرة قد اتفقت مع الكتاب الثلاثة على اصدار الكتاب ولكن الرقابة المصرية لم تسمح بنشـــره ، وقد حصلت دار ابن خلدون من دار الثقافة الجديدة على حـــق نشره فـــي بيروت بموجب اتفاق خاص ٠٠

د· عبد العزيز حجازي

ـ المواطن المخلص لا يشكك في تأييد الاتحاد السوفياتـي لكفاح الشعوب ·

ـ الدعم السوفياتي كان أحد عناصر الصمود ·

ـ الخلاف بيننا طبيعي ونابع من اختلاف النظم وأساليب التفكير·

ـ نشارك الاتحاد السوفياتي فلسفته في محاربة الاستعمـــار والصهيونية ·

ـ نريد ترشيد العلاقات مع الاتحاد السوفياتي واستمرارها ·

ـ بعض المشروعات كالترسانة البحرية لـــم تدرس بعناية مع الاتحاد السوفياتي ·



(دكتور عبد العزيز حجــازي)

٠٠٠ العادة ان تسمي صحفنا (قبل الثورة على الاقل) أى رئيس وزراء من كبار الملاك بالرئيس «الفلاح» ٠ لكن الدكتور عبد العزيـــــز حجازي رئيس الوزراء ٠٠٠ فلاح من غير كبار الملاك !

فلاح يحمل الدكتوراه ومن قرية لا يمتلك أغنى المزارعين فيها اكثر مـــــن عشرة أفدنة !

فيه الكثير من دأب واعتدال الفلاحين وتمسكهم بالقيم والعادات المرعية٠٠ لكنه يتميز عنهم بعقليته المرتبة وتفكيره المنظم وقدرته على الحسم ٠

بذكائه وكفاءته ارتقى السلم من أوله ٠٠٠ دون ان يقفز اكثر مـــــن درجة واحدة في المرة الواحدة ٠

★★★

كان موعدنا معه في نفس اليوم الذي صدر فيه البيان المصــري السوفيتي عن تأجيل زيارة الرفيق بريجنيف للقاهرة ودمشق وبغداد ٠٠وقبل ان نبدأ أشار الدكتور عبد العزيز حجازي الى اهمية الحديث عن كل ابعاد التجربة المصرية السوفيتية بأيجابياتها وسلبياتها ٠

لانه من المهم كما يقول « ان نوضح للناس كثيرا من النواحــي التي تغمض عليهم أحيانا ، حتى لا نعطي فرصة لاولئك المنتفعين من بعض التصريحات او السياسات ٠ او الذين يهمهم التشـــــويش على اى محاولة لتطوير علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي »٠

ـ قلنا للدكتور حجازي : هناك أجماع بين القيادات السياسية حول استراتيجية العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتـــي ٠٠٠ فما هو تصوركـــــم لمعنى الاستراتيجية في هذه العلاقات ؟

ـ «فلنبدأ من البداية ٠٠٠ لا اعتقد ان علاقتنا مع الاتحادالسوفيتي كانت مؤقتة او عابرة او سطحية ٠ لماذا ؟ لانها نشأت عن اتفاق حــول مبدأين اساسيين: الاول هو محاربة الاستعمار والصهيونية تحتعنوان

الاستقلال الوطني · والثاني هو التنمية الاقتصادية والاجتماعية كهدف لصالح الجماهير ·

ان المبدأ الاول وهو يرتبط بالاستراتيجية السياسية هو الاتفاق بين مصر والاتحاد السوفيتي في التفكير او الفلسفة المتعلقة بكفاح الشعوب من اجل الاستقلال السياسي· وهنا نشاركهم الفلسفة الاساسية التي يعبر عنها هذا الموقف وهو محاربة قوى الاستعمار بكل اشكاله ·

ولست اعتقد ان هناك مواطنا مصريا يرفض او يشكك في مثل هذه الفلسفة· فمن الواضح ان الاتحاد السوفيتي يؤيد قضايا التحرر الوطني والاستقلال السياسي في الدول العربية والعالم الثالث عموما وهي بالنسبة لنا من نقاط التعاون السياسية الاساسية· ان موقف الاتحاد السوفيتي معنا في المنظمات الدولية وامام العالم كله في كل مناسبة يؤكد تمسكه بتأييد مصر والدول العربية في تحرير الارض ومن أجل ضمان حقوق شعب فلسطين ·

هذه مسألة استراتيجية لا تقبل المناقشة او التشكيك ·

قد نختلف مع الاتحاد السوفيتي في تفاصيل تطبيق هذه الاستراتيجية او أسلوب تطبيقها ، لكن الحوار حول هذا الخلاف او الاختلاف ينبع من فكرة محددة، وهي اننا شركاء في الايمان بفلسفة الاستقلال الوطني ·

اما الهدف الاستراتيجي الثاني فهو التنمية الاقتصادية والاجتماعية لصالح الجماهير المصرية · ولقد كان هذا الهدف اكثر وضوحا في التعاون مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية عن التعاون مع اي مجتمعات او دول ذات نظم سياسيةواقتصادية اخرى ·

وعلينا هنا ان نحدد مراحل التطور السياسي والاقتصادي في مصر، وكيف ادت بالضرورة الى هذا التعاون ·

ان كل مراحل هذا التطور سواء تلك التي انتهت بتأميم شركة

القناة عام ١٩٥٦ او بداية صدور القوانين الاشتراكية عام ١٩٦١ ثم نشأة القطاع العام ، كانت تعبر عن قضايا اصيلة وليست عابرة. انها تندرج تحت شعار او معنى استقلال الاقتصاد الوطني . ولقد التقينا مع الاتحاد السوفيتي في تلك المرحلة بعد ازمة سحب مشروع التمويل الامريكي للسد العالي وقرارات التمصير والتأميم وبداية تطبيق القوانين الاشتراكية،لكن الاتحاد السوفيتي لم يكن بالتأكيد وراءاتخاذ هذه القرارات. كانتالقيادة المصرية صاحبةالقرار انطلاقا من المصالح الاساسية للمجتمع المصري وتعبيرا عن ضرورات وطبيعة المجتمع المصري . كيف ؟ .. هنا لا بد ان نشير الى لمحة من تاريخ المجتمع والانسان المصري . ان الظروف التي سادت مجتمعنا في ذلكالوقت كانت محصلة لتراكم سياسات سابقة. وكان ابرز ما فيها وجود طبقة من كبار الملاك ـ والرأسماليين ووجود طبقات محدودة الدخل تستغل الى ابعد الحدود لصالح اصحاب الاموال. وكل الذين عاشوا في الريف المصري يدركون تماما حقيقة الموقف الاقتصادي في ذلك الوقت .

اذن ... لم تكن القرارات عفوية ولكنها جاءت ردا على تساؤل هام : ما مستقبل هذا الشعب، وكيف نذيب الفوارق الطبقية السائدة ؟

ويهمني في هذا المجال ان اوضح انني من انصار الايمان «بالدرجات» .. في العلم والصحة والغنى ... الخ . لست مؤمنا ان كل الناس متساوون من حيث الدخل او مستوى المعيشة. ولايمكن ان يمتلك كل فرد بيتا او سيارة او ما شابه ذلك ، هناك فارق بين النظريات والواقع ....

ـ درجات غير طبقات ؟

ـ طبعا ... انا اعني بالدرجات هنا الاختلاف في القدرات.

ثم واصل الدكتور عبد العزيز حجازي حديثه :

« ان الظروف الموضوعية التي عاشها المجتمع المصري هي التي

خلقت الفلسفة الخاصة بكيفية تحقيق الهدفين المعروفين وهماالكفاية في الانتاج والعدل في التوزيع · ولقد تحقق الجانب الاول وهوتحويل شعبنا الى شعب قادر على العطاء من خلال سيطرة الدولة علىالمرافق التي اسميها الهيئات العامة بالاضافة الى المؤسسات الاقتصادية التي يجب الا ينظر اليها كوحدات ادارية ·

ان دور الدولة في هذه المؤسسات الاقتصادية والوحدات التابعة لها يتصل بثلاثة امور اساسية وهي :

- نوع ملكية رأس المال ·
- ان سياسة الدولة في التنمية تتم من خلالها ·
- ان الاموال المستثمرة فيها هي اموال الشعب ·

وانا اركز على النقطة الاخيرة لانها ترد على بعض المتقولين عن تصفية القطاع العام او محاولات الحكومة لحصر نطاق نشاطه · فقد كان مصدر الاضافات الى استثمارات القطاع العام بعد التأميم هو اموال التأمينات والمعاشات وشهادات الاستثمار او لفائض الارباح التي تتحقق من خلال هذه الاستثمارات · وهي اموال الشعب وليست اموال الحكومة · واذا القينا نظرة الى الخطة نجد ان هذه الموارد تتصاعد دائما بحيث تحقن او تغذي القطاع العام بشكل مستمر · وليس من المعقول ان آخذ اموال الناس لاعطيها للقطاع الخاص لكي يعيد استثمارها ·

ولقد ذكرت في حديثي امام العلماء المصريين العاملين في الدول الاجنبية (وغالبيتهم يعملون في دول غربية) ان القطاع العام لدينا ليس مسألة شكل · قد يكون مثله مثل اي قطاع عام شرقا وغربا · لكن الاساس لدينا يتصل بملكية رأس المال وبتوزيع الارباح · ان الادارة العلمية هي الادارة العلمية سواء كانت اشتراكية او رأسمالية · لكن الامر المهم الذي لا يمكن ان نتراجع فيه او نغير منه هو ملكية الدولة او الشعب لرأس المال وتوزيع الارباح على العاملين في هذا القطاع · انها القاعدة الصلبة النابعة من الارادة الوطنية ، التي تهدف الى

تحرير الاقتصاد من سيطرة رأس المال الاجنبي ، وذلـــك مـــن خلال سيطرة الدولة على المرافق الاستراتيجية التـــي تشمـــل الصناعات الاساسية ٠

لكن هناك فارقا بيـــن الصناعات والمرافـــق الاساسيـــة وبيـــن الصناعات والمرافق الثانوية ٠ ولعل هذه التفرقة واضحـــة ايضا في الميثاق ٠ فاذا تحدثت عن مرفق اساسي للمواصلات مثـــلا كالسكك الحديدية ، فلا يمكن ان اسلمها الى شركة من الشركات ٠ لكـــن اذا تعلق الامر بمرفق نقل في احدى المحافظات لا يعد ذلك مـــن المرافق الاستراتيجية ٠ ومن هنا يمكن للدولة والقطاع الخـــاص ان يتضامنا معا في ادارة مثل هذا المرفق دون خروج عن المبدأ العام وهو سيطرة الدولة على المرافق والصناعات والخدمات الاساسية ٠

ان انتقال ما يقرب من ٤٠٠ شركة الى ايـــدي الحكومة يتكون منها القطاع العام ادى الى تكوين فئة قادرة على ادارة دفة الاقتصاد، تقوم بتغذية مصر (القطاع العام والخاص) والدول العربية بالخبرات الفنية والادارية الممتازة ٠ انها مـــدرسة حقيقية لتربيـــة الخبـــراء والفنييـــن ٠

وهذا لا يعني ان القطاع العام خلا او يخلو من السلبيات ٠ لكن لو لم تكن الايجابيات هي الغالبة لما عاشت التجربة مهما كانت درجة سيطرة الدولة ٠

ولنتحدث بصراحة !

لقد اهملنا من خلال التجربة اثناء تخطيطنـــا للانتـــاج تطبيق الجانب الاجتماعي في الثورة الاقتصادية ٠ وهو الجانب الذي يتعلق بالانسان المصري وضرورة حصوله على السلـــع الاساسية ٠ طبعا لعبت ظروف الحرب وتكاليفها دورا في تأخير ذلك ٠ لكننا لم نؤد في كل الاحوال الدور الاجتماعي من خلال التطبيق الاشتراكي ، رغم انه كان يجب ان يأخذ مكان الصدارة في ترتيب الاولويات ٠ ولهذا السبب نتساءل اليوم آسفين : اين الحذاء الشعبي والكساء الشعبي وغيرها

من الاساسيات التي كان يجب توفير المصانع والخامات لانتاجها ، من اجل مصالح الغالبية العظمى من المواطنين البسطاء ؟!

- اليس هذا نابعا من الاهتمام بتربية الجوانب الفنية والادارية لـــدى فئــة المديرين دون الاهتمام بتربية الوعي السياسي والاجتماعي ؟

قال الدكتور حجازي :

لا اعتقد ان فئة المديرين غافلـــة عـــن الجوانـــب السياسية والاجتماعية ، لكن يجب ان يزداد اهتمامهم بها اكثر ، ويجب ان تكون الاهداف الاجتماعية واضحة في تفكيرهم اثناء ادارتهـم للمؤسسات الاقتصادية · لان الهدف الاساسي من كل ما نفعله هو مصالح الاغلبية العظمى للمواطنين ·

- لكنكم تقولون انه ليس هنـــاك فـــرق بيـــن الادارة الاشتراكية والادارة الراسمالية ، رغم ان المعروف ان الادارة الراسمالية تهتم بتحقيق اكبر قدر من الربح · أما الاشتراكية فتقرن بين هدفي الانتاج والعدالة في التوزيع !؟

قال الدكتور حجازي :

لا يمكن ان نقول ان الادارة الراسمالية تغفل نهائيـــا الجوانب الاجتماعية · فهي تقدم ايضا بعض الخدمات من تامينات واعانة بطالة ومساكن وخدمات صحية · لكن الطريقة تختلف بين المجتمع الراسمالي والمجتمع الاشتراكي ·

والذين قوموا تجربتنا من الباحثين لاحظوا انه كان من الواجب ان نبذل جهدا اكبر في الاهتمام بالنواحي الاجتماعية · كمـــا ان دور النقابات لا يزال قاصرا على المطالبة ببعض الحقوق دون ان تمارس دورا حقيقيا في عمليات الانتاج · فمن خلال الانتاج يمكـن ان تكون هناك خدمات وحوافز مالية للعاملين ·

- الحافز المادي الفردي مهم ··· لكن الحوافز المعنوية عـــن طريق التربية السياسية والاجتماعية في مثل ظروفنا اكثر اهمية ؟

قالَ الدكتور حجازي :

انني اقول للعمال دائما هذه اموالكم وبقدر ما تحافظون عليها وتقومون بتنميتها بقدر ما يزداد العائد اليكم منها • ومن المهم دائما ان نربي لدى الناس روح المحافظة على المال العام وكيفية الحصول على اكبر نفع منه • وهي مهمة شاقة بالتأكيد بالنسبة لبعض سمات شعبنا من حيث حبه « للحيازة » الخاصة في المقام الاول ، وهو الامر الذي يتضح دائما في محاولة الانفراد الشخصي بالملكية ، سواء كانت ارضا او منزلا او سيارة ••• الخ • ان الاشتراكية ليست شعارا • انها عمل وانتاج وتكافؤ فرص وعدالة في التوزيع • وهناك جيل كبير العدد لا يحس للاسف بهذا المعنى • وهو في حاجة دائما لمن يذكره بالفارق بين ما نحن فيه الان رغم كل النواقص وما كنا عليه قبل ذلك • لقد تعلم جيلنا بكفاح شاق من جانب الآباء ، ويندر ان يكون من بيننا من لم يشق اباه ويقترض من اجل تربيته وتعليمه • ان الموقف الان مختلف تماما• والابناء يتعلمون بالمجان خلال كل مراحل التعليم ، وبعضهم يحصل على مكافآت مجزية والجميع تقدم لهم خدمات مجانية او بتكلفة رمزية • ثم الاهم من ذلك ان الدولة مسؤولة عن تشغيل الجميع • ورغم ان هذا التشغيل يزيد من حجم التكلفة الاقتصادية للسلع دون مبرر اقتصادي ، الا انني اسميه نوعا من التكلفة الاجتماعية الضرورية • وهي في النهاية جزء من مهام المجتمع الاشتراكي وثمن للاستقرار السياسي •



قلنا للدكتور عبد العزيز حجازي :

– هل هناك الى جانب هذا الوجه المشرق للتعاون المصري السوفيتي بعض «الاثار الجانبية» ؟

قال الدكتور حجازي :

لقد ارتبطت عملية التنمية في مصر من خلال التعاون في بناء السد العالي ومجمع الحديد والصلب والعديد من المشروعات الحيوية

بالمجتمع الاشتراكي · وتأكد استعداد الدول الاشتراكية للمعاونة في تنمية الاقتصاد المصري · انها مصلحة متبادلـــة بالتأكيد ، وليست محاولة للسيطرة على اقتصاد مصر · ولقد كان ذلك واضحا بعد بناء السد العالي وغيره من المشروعات · فهـــم يساهمون في بنائها ثــم يتركونها لكي نديرها ونبدأ نسدد ما علينا من قـــــروض بعد الانتاج الفعلي لهذه المؤسسات الاقتصادية ·

ولقد كان الدعم السوفيتي والاشتراكي دون شك احـــد عناصر الصمود في مصر طوال هذه السنين ·

لكنني ارى ان الموضوع كان يحتاج الى تخطيط افضل · انني لا استطيع ان اوجه في ذلك لوما الى الاتحـــــاد السوفيتي كما لا الوم الاجهزة المصرية · لكنني اقول اننا كنا في بداية مراحل التخطيط في مصر ، وكان ذلك هو حدود اجتهادنا في التخطيط والتنمية ·

انني اذكر البدايات الاولى عام ١٩٥٦ حيـــــث كنت عضوا في مجلس ادارة الهيئة العامة لتنفيذ برنامج السنوات الخمس ومن بين الذين اشتركوا مع الدكتور عزيز صدقي في مشروع السنوات الخمس الاول ، وكنت وما زلت في ذلك الوقت استاذا بالجامعة · لقـــد بدانا يومئذ من فراغ ، ولم نكن نملك اي بيانات او ارقـــام عـــن الاوضاع الاقتصادية · اذن فالخطأ في تلك المرحلة كان مقبولا · وقدرتنا على التخطيط العلمي كانت محدودة ·

ولذلك يمكن القول ان مشاركة الاتحاد السوفيتي فـــي التنمية اعطت لمصر دفعة كبيرة في عمليات التنمية الاقتصادية · لكن ما هي الآثار الجانبية لهذا ؟ انه سؤال يحكم عليه التاريخ ·

ـ هل تشيرون الى السد العالي مثلا ؟

قال الدكتور حجازي :

على العكس تماما · لقد انقذ السد العالي مصـــــر مـــن كارثة محققة عام ١٩٧٢ عندما تعرضنا لفيضان منخفض · واذا لم يكن هذا

كافيا ليبرر انشاء السد العالي ، فيكفي ايضا الاثنـــي عشر توربينا لتوليد الكهرباء · ان ما يقال عن آثار جانبية هي في الواقع اقـل من الآثار الجانبية التي كنا نتوقعها بعد انشاء السد · وهي امور معروفة ولها حلول معروفة ولا تبرر عمليات التشويش غير المقبولة · ان السد العالي وغيره من المشروعات الحيوية التـــي ساهـــم السوفييت في انشائها خلقت قاعدة القوة الذاتية للاقتصاد المصـــري · وهي قوة اقتصادية واجتماعية معا · اذ انها وسعت قاعدة الانتـــاج والتصدير والعمالة وغيرها ·

ان القطاع الخاص نفسه قد افاد من هذه الفرص · وبعـــــد ان كانت قدرته على التصدير لا تتجاوز اثنين او ثلاثة ملايين جنيه سنويـا ازدادت الى ما يقرب من ٣٠ مليون جنيه سنويا الى السوق السوفيتـي فقـــط ·

لكنني لا أغفل ايضا بعض الجوانب السلبية · لقد عاتبت الاخوان في موسكو مرة عندما وجهوا بعض الانتقادات الـــــى السلع المصدرة اليهم · قلت لهم انتم المسئولون · لانكم انتم الذين تشترون هذه السلع ويمكنكم ان تعملوا على تحسين نوعيتها بتقديم الخبرة وتطوير الانتاج، والا اصبحت المسألة مجرد تلقي سلع أيا كانت نوعيتها تسديدا لقروض أو ديون ·

واذا كان تخطيط التنمية في مصر هو واجب مصر فـــــي المقام الاول وليس واجب الاتحاد السوفيتي ، الا انه كان مـــــن الواجب ان يعطى الاتحاد السوفيتي تجربته وخبرته في التخطيط ·

- هل تراعى الان هذه الامور في العلاقات الاقتصادية بيـــن مصر والاتحاد السوفيتي ؟

قال الدكتور حجازي :

لقد كانت الاتفاقية التي وقعها اخيـرا الدكتور اسماعيل صبري

عبدالله وزير التخطيط مع الجانب السوفيتي مرتبطة بحاجتنا الى ترشيد عملية التخطيط ٠

- ما معنى ترشيد عملية التخطيط في التعاون المصري السوفيتي ؟

قال الدكتور حجازي :

ان الاستقلال الوطني يعني الاستقلال الاقتصادي ٠ والاستقلال الاقتصادي يقوم على التنمية المستقلة ٠

ولكي تحقق التنمية أهدافها يجب ان نعرف اولا أهدافنا ونرتب اولوياتها ٠ وهذا الترتيب قائم على جدوى هذا المشروع أو ذاك من الناحية الاقتصادية ولفائدة الاقتصاد القومي ٠ ومن هنا ينبع طلبي لمشروع معين من واقع احتياجاتي الفعلية ٠ وقد نكون أخطأنا في بعض الفترات في ترتيب هذه الاولويات ، كما سبق ان أشرت الى غياب مشروعات تنتج الكساء والغذاء الشعبي للملايين ٠

- ربما كان الهدف هو بناء قاعدة الصناعة الثقيلة اولا ؟

- لم يكن يؤثر حجم المشروعات التي أعنيها في الحجم الكلي لعملية التنمية القائمة على انشاء صناعات ثقيلة او اساسية ٠

الم نقل اننا لا نريد ان نضحي بالاجيال الحاضرة في سبيل الاجيال القادمة، ومن ثم لم نشد الاحزمة على البطون مثل تجربة الاتحاد السوفيتي مثلا ؟

قال الدكتور حجازي :

العكس هو ما حدث ٠ وليس هذا انتقادا لبناء الصناعات الاساسية والاهتمام بها ٠ فلا أحد ينكر اننا بنينا أهم مشروعاتنا الاساسية وهي لا تأتي بعائد سريع عندما كنا نحارب او نستعد للحرب ٠ ولعل ذلك كان من أهم منجزاتنا ٠ وهذه من فضائل التعاون المصري السوفيتي

دون شك ٠ رغم أننا قد ندفع الثمن الان في شكل نوع من الحرمان أو الغلاء بسبب نقص السلع الاستهلاكية ٠

ان الارقام تؤكد أهمية ما أنجزناه لصالح الاقتصاد المصري والامة كلها ٠فبالرغم من تصاعد الاستعداد للمعركة ومن المعركة نفسها فقد ارتفع حجم المشروعات الاستثمارية من ٢٨٠ مليون جنيه ١٩٦٨ الى ١١٨٠ مليون جنيه في ١٩٧٥ ٠ وكان الجزء الاكبر منها خلال السنوات الست العجاف ٦٧ ـ ٧٣ مخصصا لمشروعات لا تأتي بعائد سريع ٠ وقد أدى ذلك الى الضغط على الخدمات ، وهو ما نعاني منه الان ٠ لكننا لا نستطيع ان نتوقف عن مثل هذه المشروعات الاساسية حتى لو عانينا بعض التضخمات ٠

ـ ربما لم تكن التضحيات لدى كل فئات الشعب متكافئة ؟

قال الدكتور حجازي :

ـ لا يمكن ان أتجاهل ان الفئات التي تعنيها كانت تدفع جزءا من دخولها عن طريق الضرائب او شهادات الاستثمار او المدخرات لتساهم في التنمية ٠ وعموما كان أحد اسباب سياسة الانفتاح ان نخرج الفئات المالكة الى السطح لاستثمار مدخراتها بدلا من ان تهرب او تخفى أرباحها ٠

ـ ما هي حدود الاخطاء في التعاون المصري السوفيتي في التنمية الاقتصادية؟

قال الدكتور حجازي :

لا شك أن الاتفاقيات ـ كما ذكرت ـ لعبت دورا كبيرا للغاية في تنمية اقتصادنا ٠ لكن ذلك تم على حساب اشياء اخرى ٠ وهذه الصورة المتوازنة تثير امتعاض البعض عندما نفتح الحديث فيها ٠ لكن اذا أردنا ان يكون هناك توازن فلا بد ان تكون هناك حركة ٠ ومن هنا لا يتصور أحد ان تكون ٧٥ بالمئة من صادراتنا الى الدول الاشتراكية وأن تاتينا منها ٥٠ بالمئة من وارداتنا ٠ ان ذلك يلقى علينا عبئا اخر ٠

اذ اننا نضطر في هذه الحالة ان نتجه الى دول العمـــــلات الحرة لاستيراد بعض الضروريات دون أن يكون لدينا العملات الحرة الكافية لذلك · وهذا هو المعنى الذي أقصده من أن عملية التنمية من خـلال الاتفاقيات أوجدت درجة معينة من العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة·

ـ هل يمكن ان نسميها علاقات «مفتعلة» ؟

قال الدكتور حجازي :

لا ··· ليست مفتعلة · ولكنها لم تدرس كما يجب · وهنا كمـا أشرت من قبل لا أوجه اللوم الى أحد في موسكو او في القاهرة · لكنني أحدد واقعا · وهو اننا وجدنا أنفسنا امـام مشكلة · وعنـدما أقول للاتحاد السوفيتي خذوا قطننا وأعطونا غذاء أو مواد لتشغيل المصانع فذلك بسبب اننا فوجئنا ان ٣٠ بالمئة من طاقات مصانعنا عاطلة · ولا أعني بذلك المصانع التي حصلنا عليها من الاتحاد السوفيتي ، لكنني اتحدث بصفة عامة ·

اذن لا يمكن ان نترك العلاقات الاقتصادية للصدف ، ولكن يجب أن ندرسها وننسقها لكي نقويها وننميها ، والا وجدنا أنفسنا في مأزق يؤدي الى الانهيار ·

ولذلك فعندما توليت وزارة الاقتصاد رأيت ضـــرورة تخطيط علاقاتنا على أساس سليم · وهي أن اعرف ماذا أريد علـى التحديد ووفقا للشروط الضرورية التي تحقق أهدافي من مشروع معين · وهذا يعني ألا أقبل أو اطلب اي مشروع من الاتحاد السوفيتي دون دراسة كما كان يحدث احيانا من جانبنا مع الاسف ·

ـ هل هناك مشروعات لم تدرس بعناية مع السوفيت ؟

قال الدكتور حجازي :

مشروع الترسانة البحرية مثلا ندفع له اعـــانة سنوية لسد

العجز ، وحتى لو كنا نحن المسئولين عن هذا الا ان الاتحاد السوفيتي يستطيع ان يقوم بعملية ترشيد للانتاج · ان التنمية لا تقتصر على تقديم الات وماكينات ومصانع · ان التنمية عملية كاملة تتعلق بترشيد الانتاج كله الى جانب تقديم الالات ·

ولقد طلبت من المسئولين البلغار عند الاتفاق معهم على توريد الات تفريخ الدواجن الا يقتصروا على ارسال الالات لنا لكي نضعها في المخازن · نريد أن نراهم وهم يباشرون العملية كلها في البداية حتى نرى الدجاجة تخرج في نهاية العملية من معامل التفريخ ·

ـ وما مدى مسئولية السوفيت في موضوع الترسانة البحرية ؟

قال الدكتور حجازي :

ـ انهم شركاؤنا ويشترون انتاجنا ومن هنا مسئوليتنا ومصلحتنا المشتركة في أن يقولوا هذا صواب وهذا خطأ · اننا ننتج بعض السفن في هذه الترسانة ويشتريها السوفيت لتصريفها الى دولة ثالثة ـ رغم أننا نحتاج هذه السفن ·

ـ وهل هذا مخالف للعقد ؟

قال الدكتور حجازي :

ليست مخالفة للعقد لان الاتفاقية تنص على هذا · ومن أجل ذلك فأنا لا ألوم أحدا · لانه يحدث في بعض مراحل التنمية المبكرة ان تتخذ بعض القرارات التي لا تؤدي الى نتائج اقتصادية سليمة ، ومن هنا أقول لقد آن الاوان لان تكون قراراتنا مبنية على أساس اقتصادي سليم ·

وكما قلت من قبل بالنسبة للطاقات العاطلة (حتى للمصانع غير السوفيتية) فان معونة الاتحاد السوفيتي في هذا الصدد تحقق فائدة

مشتركة للطرفين وتحقق الهدف الحقيقي من عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ·

قد يثير السوفيت مسألة اخرى وهي أن تكلفة انتاجنا عالية وهي احدى الاسباب في عدم اقتصادية بعض المشروعات · لكن المسألة ليست شخصية ، ومن هنا مسئولية الاتحاد السوفيتي كشريك لنا في ترشيد انتاجنا وتخطيطنا للتنمية ·

- هل هناك اثار جانبية أخرى ؟

قال الدكتور حجازي :

من الممكن ان نقول ان حجم التنمية الاساسي مع الدول الاشتراكية فقط حرمنا من الافادة من بعض أوجه التكنولوجيا المتقدمة في الغرب ، في الوقت الذي يتجه فيه الاتحاد السوفيتي الى تعاقدات للحصول على الخبرة والقروض ووسائل التسويق لانتاجه مع الغرب ولذلك علينا نحن أيضا ألا نقصر التنمية على جهة معينة ·

- وهل كان هناك بديل اخر بالنسبة لنا ؟

قال الدكتور حجازي :

كانت هناك ظروف سياسية أدت الى أن نعادي الامريكيين وأروبا الغربية ·

- هم الذين عادونا ؟

- هم بدأوا العداء ونحن عاديناهم ايضا · لكن أحدا لا يجبر أحد على اتخاذ موقف ·

- الم نحاول كثيرا الاستعانة بهم دون جدوى ؟

ـ لقد حدث طبعا ابتداء من مشروع السد العالي · لكن السياسة تتحرك دائما ولا تجمد عند موقف · ولقد سرنا طويلا في هذا الشوط · ولا يعني الانفتاح أننا سنتحول او نبتعد عن العلاقات التـي استمرت طوال هذه السنين كما يقول البعض أحيانا ، لكن المهم هـــو ترشيد العلاقات القديمة ، ولا يمكن ان تقوى هذه العلاقات ما لم تكن المصالح المشتركة واضحة ·

ـ لقد كان الخط الثابت للغرب هو عدم المساهمة الجدية في تصنيع الـدول المستقلة ؟

قال الدكتور حجازي :

هذا صحيح ··· لقد كان التصنيع من جانب الغرب محدودا · لكن هناك الان مجموعة عوامل أدت الى تغيير في الموقف وأهمها مـا نسميه بالوفاق بين الشرق والغرب ·

ـ هل ترى ان الوفاق بين الشرق والغرب غير ضار بمصالحنا ؟

قال الدكتور حجازي :

ان الوفاق له قيمته بالنسبة لنا · لقد اوضح صورا كثيرة مـن الناحيتين السياسية والاقتصادية · وساعد على استخدام اكثر مـن سبيل لتحقيق الايديولوجية ، أو حقق مرونة في تطبيق الايديولوجيات· واليوم لا يستطيع أحد ان يبني وهو منغلق على نفسه · علينا ان نختار من كل التجارب · وان نستفيد بعد حرب أكتوبر ومعركة البترول ومـا حققته من أثر على استراتيجيات العالم · ان مصر حتى بدون ثـروة مادية كبيرة تعد من مراكز الثقل الرئيسيـــة استراتيجيا وحضاريا وتاريخيا واقتصاديا ·

ـ هل أثارت تجربة الانفتاح أي شكوك لدى السوفيت مما اقتضى شرح أهدافها لهـــم ؟

قال الدكتور حجازي :

لقد شرحت سياستنا حول الانفتاح عندما التقيت مع نوزيكوف نائب رئيس الوزراء السوفيتي في موسكو في أغسطس ١٩٧٣ . ومن الجائز انه كان هناك بعض سوء الفهم في احدى المراحل .

كما ذكرت للرئيس بودجورني وللرفيق جروميكو وزير الخارجية ان بعض ما تنشره صحافة الغرب من تحليل او تؤويل تعطي الانطباع بأننا خرجنا عن مبادئنا الاساسية . لكن الحقائق الصلبة للاقتصاد المصري تكفي دائما لمعرفة الحقيقة . اذ كيف يمكن الخروج على هذه المبادىء اذا كان القطاع العام يمثل حوالي ١٠٠٠ مليون جنيه من الاستثمارات ؟ واذا كانت الطبقات التي تنبع منها التشريعات في أهم المؤسسات السياسية تمثل العمال والفلاحين الى جانب بقية فئات التحالف؟

ان الانفتاح يتم وفقا لضوابط معينة وفي اطار الخطة المصرية .

– لعل الشكوك نابعة مما تثيره بعض الفئات او العناصر من مفاهيم خاصة بها ؟

قال الدكتور حجازي :

علينا ان نثبت بالعمل والانتاج ان هذه العناصر غير مؤثرة وليست لها قيمة تذكر ، اننا مجتمع حر ولكن هناك قصورا من جانب القوى الوطنية في شرح التجربة المصرية – بايجابياتها وسلبياتها .

ان تجربتنا ولدت من مجتمع متخلف لكي تتقدم به الى الامام . ونحن لا ننكر سلبياتها . لكن ايجابياتها اكبر بكثير والا ما استطاعت ان تعيش وتنمو رغم كل المعوقات والتحديات . ثم ان القادرين على الحكم على تجربتنا هم الذين عايشوها وعاشوا في وسطها . الذين رأوا موطن قوتها وضعفها . انني أقول دائما لمن يتحدثون او يكتبون دون روية او مسئولية ، لا بد ان تعرفوا الحقائق قبل ان تحكموا على

السنوات العشرين الماضية · وكثيرا ما ألتقي ببعض الاخوان من ذوي الاراء المخالفة واطرح عليهم موضوعا في الاقتصاد او السياسة او الحرب واكتشف على الفور انهم لا يستندون في ارائهم الى أي أساس متين !!

علينا اذن ان نبرز انجازات الاعوام العشرين الماضية ، وستتكفل الحقائق باقناع المتشككين ·

- هل أدت محاولة ترشيد العلاقات مع الاتحاد السوفيتي الى خلاف من أي نوع ؟

- أسأل الجانب السوفيتي !

- نحن نحاول تقديم وجهة النظر المصرية على اختلاف الظلال والاجتهادات · ومن هنا نسأل ما هي اسباب الخلاف ؟

- وهل هناك خلاف؟

ثم أضاف الدكتور حجازي :

اعتقد ان الخلاف طبيعي وينشأ من اختلاف النظم وأساليب التفكير · ان للسوفيت طريقتهم في التفكير واسلوبهم في الحركة ولديهم بعض التشكيك بالنسبة لبعض القضايا ··

- أي قضايا ؟

....

- الانفتاح أثار بعض التشكك · لكن هذه الامور تسوى دائما بالمناقشة المخلصة والمعمقة · انني اذكر دائما ان كل المشاكل كانت تحل عندما تطرح الامور بصراحة على المائدة ·

وبالنسبة لنا فالمسألة هي مسألة ترشيد وأولويات · والهـــدف واضح أمامنا ردا على سؤال محدد وهو : التطبيق الاشتراكي لمـــن ؟ ان المسألة لا تتعلق بالاسلوب · فليس من المهـــم ان يتـــم التطبيق الاشتراكي عن طريق التأميمات ، لان عهد التأميم قد انتهى · وليس عن طريق فرض اجراء استثنائي · لكن هناك اكثر مـــــن سبيل ، كفرض ضرائب على الدخول الكبيرة · ان من حق المستثمر ان يستغل أمواله وينتج بشرط ان يأخذ حقه ويعطى للدولة حقوقها ·

ـ ومسألة التسليح · هل هناك مشاكل حولها ؟

ـ نحن لم نستطع ان نفهم سبب المشاكل الخاصة بالتسليح !

ـ كيـــف ؟

ـ أقول بأمانة انني لا أتصور انه بعد النجاح الساحق الـــذي أحرزه الانسان المصري بالسلاح السوفيتي في معركة ٦ أكتوبر نفاجأ بأن تقف الامور «محلك سر» ··!!

ـ هل هناك تفكير في اقامة صناعات ثقيلة اخرى ؟

ـ طلبنا من الاتحاد السوفيتي ان يساهم في اقامة صناعات ثقيلة اخرى في مصر كما طلبنا ايضا من جهات غربية ·

★ ★ ★

قلنا للدكتور حجازي : ما هـــو تصورك لمستقبل العلاقـــات المصرية السوفيتية ؟

قال الدكتور حجازي :

أعتقد ان التعاون الاقتصادي والفني قائم ومطـــلوب · وممـــا يؤكده اننا عرضنا اخيرا عشرات المشروعات على الاتحاد السوفيتي ·

وليس هناك اي نوع من التوقف في التعامل · وهناك اتفاق مبدئي بأن يساهموا بمشروعات تبلغ قيمتها ٢٠٠ مليـــون جنيه وهـــــــي بقية الاتفاقيات التي لم تنفذ بعد · كما أن لبيدنسكي نائب رئيس هيئـــــة التخطيط الذي زارنا اخيـــــرا ، تسلم قائمة بعشـــــرات المشروعات لدراستها · وقد فهمت ان كل الامور تسير سيرا حسنا ·

ــ **هل تعتقد ان البرجوازية الوطنية المصرية تفضل استمرار هذه العلاقة ؟**

قال الدكتور حجازي :

البورجوازية المصرية لا تحكم مصر ·

ــ **انها جزء من التحالف وصوتها مرتفع !!**

ــ لا أسمع صوتها ! صحيح ان البعض يحاول شد الانفتاح الـــى مستوى « الاقتصاد الحر » ··· لكن الغريب الان هو انه لم يعد هنـــاك في أي مكان (حتى في الـــــــــدول الرأسمالية) «اقتصاد حر» بالمعنى التقليدي ··!

ــ **ألا تستفيد البورجوازية المصرية من العلاقات ؟**

ــ طبعا تستفيد · لكن كما قلت يجب ان يكون هناك ترشيد وتوازن والا ينقلب الميزان ، وهو أمر ضار بالطرفين · انني أقول لهم احيانـــا تصوروا ماذا يحدث لو توقفت مصانعكم ؟ وقد يقولون ان مصانعنا لم تتوقف ، وهذا صحيح · لكن عندما تساعدني فالفائدة لك ولي ستكون اكبر · من غير الممكن ان استورد قمحا من دول العملات الحرة بحوالي ٧٥٠ مليون دولار · اننا نحاول ان نحصل على نصف مليون طن قمـــح

من الاتحاد السوفيتي ولم نستطع ... مع انه اعطى للهند ٢ مليـون طن . ومن غير الممكن بالنسبة لنا أن نصدر قطن غزل وارز للاتحـاد السوفيتي ثم نستورد القمح من دول العملات الحرة .

– أليست هذه الامور واضحة في الاتفاقيات ؟

– من أجل هذا نريد تصحيح وترشيد الاتفاقيات والمساعـدات السوفيتية .

– هل أنت متفائل بمستقبل العلاقات ؟

قال الدكتور حجازي :

انني متفائل طبعا . ومن واقع تجربتي مع الدول الاشتراكيـة فنحن نصل دائما الى تفهم وتفاهم كامل عندما يعرفون الصورة بكـل أبعادها . ولقد سبق ايضا ان قلت لهم الا يأخذوا معلوماتهم عنا من صحافة الغرب ؟

قلنا للدكتور حجازي :

– كيف تعمق الفهم المتبادل بين مصر والاتحاد السوفيتي ؟

قـال :

بالحوار ... انني كثيرا ما اتساءل لماذا يحدث هـذا بيننا ؟ واعتقد احيانا ان بعض ما يكتب في صحفنا يكون له ردود فعل سيئة. اذ ليس من مصلحتنا او مصلحتهم ان تتوقف او تتعثر هذه العلاقات .

وقد نشعر احيانا ان مصر لا تأخذ ما تستحقه مـــــن امكانيات للحركة في مثل موقفها السياسي والاقتصادي والعسكري · لكن ذلك لا يعني ابدا ان العلاقات تتعثر او تتوقف بأي شكل ·

··· اننا مقتنعون بتجربة وحقائق التجربة المصرية السوفيتية· ونعتقد ان انجازاتها وايجابياتها كبيرة للغاية ·

وكل ما نطلبه هو ترشيدها ·





د٠ عزيز صدقي

ـ الاتحاد السوفيتي لم يتعامل معنا باسلوب تجـــــاري ولم يستهدف الربح ابدا ٠

ـ العلاقات بيننا تقوم على اساس اتفاق في المبادىء ٠

ـ تضاعف حجم الصناعة بفضل المعونة السوفياتية الى ٨٠٠ ٪ خلال عشرين سنة ٠

ـ لا يمكن ان يكون هناك تـــوازن في العلاقة مـــــع الاتحاد السوفيتي وامريكا ٠

ـ لماذا اقترحت نوعا من التكامـــل الاقتصادي مـــع الاتحاد السوفيتي ؟

ـ لا أرى مبررا للخلاف ٠٠٠ واذا وقع فهو خلاف بين اصدقاء٠

تتفق معه او تختلف هذه قضية أخرى ! لكن هناك اجماعا حـــول دوره الاساسي في تنفيذ اهم برامج الثورة المصرية واكثرها طموحا وهو تحويـــل مجتمع زراعي متخلف الى مجتمع يخطو للمرة الاولى في الطريق الوحيـــد الصحيح وهو التصنيع · وكل الرجال الذين يثيرون الجدل هنا وهناك لهـــم بصمات واضحة على ما ينجزونه من اعمال · وعزيز صدقي واحد منهم ·

ولانه يعرف موضوعه تماما ، ويتدفق في حديثه بمعلومات وارقـــام لا تستطيع دحضها فقد تشبثنا في اكثر الاسئلة بترديد ما «يقال» وما «يشاع» ··· حاولنا اتخاذ موقف (الاتهام) وعليه ان (يدافع) ··· لكي لا يجرفنا تياره ··!



قلنا للدكتور عزيز صدقي : كيف ترى العلاقات المصرية ـ السوفياتية في المجال الذي عشت كل تفاصيله ؟ وهل تتعثر وتتحسر او تنمو وتتوطد ؟ وهـــل هناك فائدة أو جدوى من نموها ··· اليست هذه التجربة ايضا فـــي حاجة الى مراجعة ان لم يكن تراجع ··· من زاوية المصالح المصرية الحقيقية ؟

ـ قال الدكتور عزيز صدقي : دعونا نحدد نقطة البدايـــة أولا وعلى شكل سؤال أيضا : هل هناك اهمية للتصنيع في ظروف كظروفنا وفي بلاد كبلادنا ؟

كان الوضع عند قيام ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ معروفـــا للجميع ··· مجتمع زراعي في الاساس · اي تشكـــل الزراعة فيه الجزء الرئيسي من الدخل القومي · اما الصناعة فكانت متخلفة في ما عدا بعض النشاط الاجنبي والوطني المحدود الذي لم يتجاوز ١٠ في المائة من الدخل القومي المصري · وفي مثل هذه الحالة ليس التصنيع بالضرورة هو الحل دائما · فقد تسمح الامكانيات الزراعية في بلـــد من البلاد بعمليات تطوير وتوسيع تحقـــق بعض أغـــراض التنمية الاقتصادية ، من رفع لمستوى المعيشة وتلبية للاحتياجات المتزايـــدة

لسكان متزايدين • لكن دراسة الاوضاع الاقتصادية في مصر اثبتت ان الزراعة المصرية محكومة بموارد مائية محددة حتى بعد انشاء السد العالي • ومن ثم لم تتجاوز أمكانيات التوسع الزراعي اكثر من زيادة قدرها ١٥ في المائة من الارض كحد اقصى • وهي زيادة يبتلعها النمو السكاني الذي يصل الى ٢ر٨ في المائة سنويا • وهي زيادة يبتلعها النمو المصرية الى الصناعة والتصنيع بوصفها المجال الوحيد للانطلاق في التنمية بلا حدود كان هو الحل الوحيد الذي لا بديل عنه لمواجهة الحاجات المتزايدة والاساسية ايضا للشعب المصري • ومن هنا كان قرار انشاء وزارة الصناعة عام ١٩٥٦ • ستتساءل ـ ربما ـ ولماذا وزارة الصناعة ؟ لاننا لم نكن نستطيع ترك الصناعة لافراد يقرر كل منهم بناء مصنع ما في مكان ما على نطاق ضيق ، وقد يكون صالحا لاقتصاد البلد وقد لا يكون • أما اذا أردنا ان نقيم صناعة تساهم بدورها الملحوظ في تنمية الاقتصاد القومي فيجب ان تقوم في اتجاه محدد ومخطط • ولا يمكن تنفيذ خطة بدون سيطرة ورقابة الدولة • ومن ثم صدر قانون التنظيم الصناعي ووضعت خطة خمسية للتنمية الصناعية ، وتحدد للمرة الاولى في تاريخ مصر دور الصناعة في التنمية •

الخطة الخمسية الاولى

ولكي نقيم صناعة بالحجم الذي يحقق اهداف تنمية حقيقية وضعنا خطة للاستثمار في حدود ٢٥٠ مليون جنيه للسنوات الخمس ، أي بواقع ٥٠ مليون جنيه سنويا • ولكي ندرك قيمة هذا الاستثمار في ذلك الوقت علينا ان نعود الى الارقام السابقة على الثورة • لقد كان الاستثمار الصناعي في مصر عام ١٩٥٢ لا يتجاوز ٢ مليون جنيه في صورة نشاط فردي يتجه في الاغلب الى المجالات الاكثر ربحا بصرف النظر عن مدى اهميتها للتنمية ، وعلى رأسها المباني وبعض الصناعات الاستهلاكية •

من الذي سيساهم اذن في توفير ٥٠ مليون جنيه سنويا بصرف النظر عن عائد سريع او بطيء؟

ليس هناك سوى الدولة · لكن حتى الدولة في ذلك الوقت لـــم تكن تستطيع توفير كل النقد الاجنبي اللازم للتعاقد على استيراد الالات والمهمات اللازمة لاقامة مصانع وتشغيلها ···

وهنا جاء دور الاتحاد السوفياتي ·

ــ ولماذا الاتحاد السوفيتي بالذات ؟

ــ لسبب غاية في البساطة · وهو ان شروط التعامل مـــع الدول الغربية تقتضي اما الدفع الفوري او التقسيط على خمسة أعوام بعــد دفع ٢٥ في المائة من الثمن أولا ثم فائدة قدرها حوالي ٦ في المائة على ما تبقى من الدين · أما الشروط السوفياتية فهي الدفع بعد مرور عام من استكمال بناء المصنع (لكي يكون الدفع من عائد الانتاج) وباقساط لمدة اثني عشرة عاما وبفائدة لا تتجاوز ٥ر٢ في المائة ، هذا هو الفرق!

وقد سافرت الى موسكو في يناير (كانون الثانـــي) ١٩٥٨ بعد اقرار الخطة في القاهرة ، ووقعت اول اتفاقية للتعـــاون الاقتصادي والفني ، حصلنا بموجبها على قرض قيمته ٦٢ مليون جنيه استرليني لتنفيذ مشروعات الخطة ·

لا بد ان اذكر هنا ان الشروط التي تم علـــى اساسها توقيع الاتفاقية كانت تؤكد رغبة الاتحاد السوفياتي في مساعدتنا ·

ــ كيـــف ؟

ــ كان تنفيذ هذه الاتفاقية هو السبيل الوحيد لانجـــاز الخطة الخمسية الاولى في أقل من خمسة أعوام · وبسبب ذلك النجاح قـرر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر الاخذ بمبـــدأ التطبيق الشامل للتخطيط في كل مجالات الاقتصاد وتم وضع الخطة الخمسية الاولـى

عام ١٩٥٩ ٠ ودفعنا نجاح التعاون المصري السوفياتي الى مزيد من التعاون فتعاقدنا على قروض اخرى لمشروعات اخرى ٠

والحقيقة ان اختيار مشروعات الخطة الاولى كان يتناسب تماما مع ظروفنا في ذلك الوقت كبلد يستورد كل شيء من الخارج ويستنزف بذلك كل موارده من النقد الاجنبي ، فلا يتبقى منها شيء للتنمية ٠ ومن ثم كان تفكيرنا ينصب على ضرورة البدء في تصنيع بعض السلع الاقرب الى حاجات الاستهلاك لكي نوفر النقد الذي يساعدنا على مزيد من التنمية ٠

وفي المرحلة التالية مباشرة ركزنا على تصنيع السلع الاساسية كمشروعات التعدين وتكرير البترول ومشروع الدرفلة في مجمع الحديد والصلب (وان كان المشروع الاخير قد اجل من جانبنا الى ما بعد ١٩٦٥) ٠

وفي كل هذه المراحل كما سبق ان اشرت لم يكن دور الاتحاد السوفياتي معنا هو مجرد بناء مصانع ٠ كانت رغبته التي عبر عنها عمليا هي دعم الاقتصاد المصري بشكل شامل ، والا تعثرت عملية التنمية ٠ ولذلك فالى جانب التعاون الصناعي واتفاقية السد العالي ومجمع الحديد والصلب واستصلاح ٣٠٠ الف فدان ، اتخذت المعونة سبيلا اخر وهو الاتفاقيات التجارية ٠ فقد فتحت هذه الاتفاقيات اسواق الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية لسلعنا ، التي أفادت من المنافسة بين أسواق الشرق والغرب ٠ كما عاوننا الاتحاد السوفياتي على استيراد سلع نصف مصنوعة ، لم يكن من السهل استيرادها من الغرب ٠

وقد ساهمت هذه المواقف في تخفيف اعبائنا الاقتصادية وتيسير صعوبات كثيرة تحيط بعمليات التنمية بالنسبة لدولة نامية كمصر ٠ واستطيع ان اقول دون اي مبالغة اننا بدون هذه المعونة لم يكن ممكنا ان ننجز ما تم بالفعل ، كما انه كان من المستحيل التعاون مع اي جهة غربية في هذا المجال ٠

ـ لكن «يقال» احيانا اننا اقتحمنا مشروعات صناعية لا تتناسب مع قدراتنا ولا نستطيع ان ننافس فيها الدول الصناعية ، مما يعد تبديدا للجهد والمال ؟

اعرف الكثير مما يقال في هذا الخصوص · والرد الوحيد هو ان نضرب مثالا عمليا · لقد تعاقدنا مع الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٤ على مجمع الحديد والصلب · وكانت قيمة التعاقد ١٥٦ مليون روبل او حوالي ١٦٥ مليون دولار · وكان هذا السعر اقل بكثير من مثيله مع اي شركة غربية · وحتى لو افترضنا انه يساوي نفس السعر الغربي ، الا اننا مطالبون في التعامل مع الغرب كما قلت ان ندفع فورا حوالي ٢٥ في المائة من الثمن ونقسط الباقي سنويا بفائدة ٦ في المائة·

لكن الاهم من ذلك هو لماذا نقتحم صناعة مثل الحديد والصلب ؟

هناك اكثر من سبب ، فمثل هذه الصناعات الاساسية لا تقوم بدونها اي صناعة اخرى مما يسمى بالصناعات الخفيفة او المتوسطة·

وبدون الصلب لا تستطيع ان تصنع دراجة او ثلاجة او قضبان السكك الحديدية او حديد التسليح وغيرها من الصناعات الضرورية· فاذا لم تنتجها يجب ان تستوردها · ولكي تستورد كل ما تريده منها يجب ان تكون قدراتك المالية ومن النقد الاجنبي بالتحديد اضعاف ما تستطيع توفيره فعلا · ولذلك نحن لم نقم بمغامرة غير محمودة العواقب · ويكفي ان تعلم ان انتاج المجمع بحسابات ذلك الوقت يتجاوز ١٦٥ مليون جنيه سنويا ، تستطيع ان تخصص منها جزءا للاقساط وتستخدم الباقي في مجالات اخرى للاستثمار ·

وكذلك الحال في صناعات أخرى كالتعدين والبترول والاسمنت·· ان تكاليف اقامة مثل هذا النوع من الصناعات الاساسية تتجاوز عشرات الملايين من الجنيهات فكيف كان من الممكن ان ننفذها مع ضعف قدراتنا المالية اذا لم نجد العون والرغبة الصادقة لدى لاتحاد السوفياتي !؟

ـ أليس هذا ايضا احد اساليب التجارة الاكثر ذكاء ؟

قال الدكتور عزيز صدقي : لقد سبق ان اجبت على هذا التساؤل، لكن لنأخذ مثلا ثانيا من نفس مشروع «المجمع» فهذا المشروع الذي سبق ان تعاقدنا عليه عام ١٩٦٤ تأجل تنفيذه بعد ان تركت وزارة الصناعة عام ١٩٦٥ عندما رأت الوزارة الجديدة رأيا اخر ٠

وعندما عدت الى الوزارة عام ١٩٦٧ اتصلت بالاتحاد السوفياتي لاحياء التعاقد القديم ٠ كانت الاسعار قد ارتفعت كما هو معروف ٠ وقالوا لي ليس من المعقول ان نتعاقد باسعار عام ١٩٦٤ ٠ لكن بعد أن شرحت ظروفنا وافقوا على الفور ٠ واقول بصراحة لو انهم كانوا قد طلبوا ١٠ بالمائة زيادة عن السعر القديم لكان لهم كل الحق ٠ أما في العرف التجاري العالمي فهناك شرط معروف في اي اتفاقية ينص على ان المشتري يتحمل اي زيادة تطرأ على السعر عند الاستلام ٠ لكنهم لم يلجأوا الى هذا لاسلوب معنا ، مما يجعلني أؤكد ان الامر بالنسبة للاتحاد السوفياتي ليس «صفقة» يحقق منها ربحا ، كما انه لم يقدم قرضا من اجل الحصول على «مقاولة» السد العالي مثلا ٠ ان اي تصوير لعلاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي بهذا الشكل ليس مجرد تجن فقط ولكنه سخف !

ومن جانبي على الاقل لم أحس في أي وقت ان تعامل السوفيات معنا كان يستهدف ربحا او استغلالا أو أي كسب من أي نوع ٠

ـ ربما لان الالات والخبرة السوفياتية متخلفة ٠٠ وليست رائجة في الاسواق العالمية ؟

قال الدكتور عزيز صدقي : « الذين وصلوا الى القمر لا يعجزون عن عمل اي شيء ٠ والى الذين يتحدثون عن تخلف الالات السوفياتية اضرب مثلا من الهند ٠ لقد اقامت الهند ثلاثة مصانع للحديد والصلب بالتعاون مع المانيا الغربية وبريطانيا والاتحاد السوفياتي ٠ ومنذ البداية وحتى الان يعمل المصنع السوفياتي بكفاءة كاملة ٠ اما المصنعان الاخران فقد تعثر تشغيلهما منذ البداية وحتى الان ٠ ولماذا نذهب بعيدا ٠ ان مصنعنا للحديد والصلب الذي انشأته شركة «ديماج»

الالمانية الغربية لم يعمل بكفاءة منذ تشغيله · وقد استدعيت بعض الخبراء الاميركيين واقاموا هنا لمدة عام كامل لكي يساعدوا في تشغيل «الفرن» ولكنهم لم ينجحوا في رفع كفاءة التشغيل ولو بمقدار طن واحد !

واخيرا احضرنا خبراء من الاتحاد السوفياتي فارتفع الانتاج خلال سنة الى طاقته الكاملة · هذه هي الخبرة السوفياتية · واليكم أيضا مجمع الحديد والصلب الذي يعمل بطاقته الكاملة دون اي مشاكل ·

ان الحديث عن تخلف الصناعة والخبرة السوفياتية ليس سوى دعايات غربية ، ومن المفروض ان نكون قد تجاوزنا هذه المرحلة ·

ـ لكن لا بد ان يكون هناك سبب او اسباب لهذه المساعدة ؟

ـ هناك اسباب بالتأكيد لكنها ليست ما « يقال » او « يشاع » · ان مبدأ مساعدة الدول المتحررة على بناء اقتصادها وتطوره بشكل مستقل هو احد مبادىء السياسة السوفياتية · هناك اتفاق في المبادىء اذن · انهم يساعدوننا بوصفنا دولة وطنية تقدمية تحاول تنمية نفسها وتؤمن بالاشتراكية بالصورة التي تطبقها بها وتحارب الاستعمار · وكل هذه المبادىء تعد من أصول السياسة السوفياتية · وهذا هو المدخل الاساسي للتعاون معنا · ولذلك اقول ان العلاقات ليست من النوع المؤقت ، وليست مجرد تقديمقرض او قروض تنتهي بهذه العلاقة· وحيث ان العلاقة قائمة على اتفاق في المبادىء فهذا هو الضمان الحقيقي لها ·

ولكي نطبق معنى الاتفاق في المبادىء يمكن ان نضرب مثلا بالصناعة · ان اهمية تقديم المساعدة السوفياتية للصناعة المصرية تنبع من ان الصناعة هي القاعدة التي قامت عليها الاشتراكية في مصر · وبدون الصناعة الضخمة لم يكن من الممكن ان نقول بالتطبيق الاشتراكي · واذا كنا نقول ان الاشتراكية هي احد المبادىء التي نريد

تطبيقها في بلادنا لانها تحقق الكفاية في الانتاج والعدالة في التوزيع ، فمساعدة الاتحاد السوفياتي كانت سبيلا ووسيلة لتحقيق هذا الهدف . ولقد ادت المعونة السوفياتية في الصناعة ايضا الى توسيع القاعدة العمالية المدربة والفنية بشكل لا يمكن مقارنته بمـــا كنـــا عليه قبل التصنيع . وهذه القاعدة ليس لها مثيل في الحجم والنوع في اي دولة من دول الشرق الاوسط وافريقيا ، وهو نجاح نعتز به . امـــا الدور الذي قامت به الصناعة المصرية في الاقتصاد وفـــي الصمود وفي الاستعداد للقتال فيكفي الاشارة الى ما اكده الرئيس السادات حول هذه المسألة ودور الصناعة في صمود شعبنا وجيشنا قبل واثناء وبعد السادس من اكتوبر (تشرين الاول) .

واذا كانت صداقتنا مع الاتحاد السوفياتي واتفـــاق المبادىء والرغبة في التعاون قد اثبتت قيمتها في الصناعة ، فلا يعني ذلك ان الصناعة هي المجال الوحيد . فمن الصناعة الى الزراعة الـــى السد العالي واستصلاح الاراضي آلى المعاونة بطريقة أصيلة فـــــي دعم قدراتنا على تحرير أراضينا .

ان العبور الذي تم في ٦ اكتوبر (تشرين الاول) ببطولة الجنود وشجاعة القيادة السياسية والعسكرية لم يكن ليتم بـــدون الاسلحة والدعم السوفياتي . انني استطيع ان اقول هذا الكلام لانني كنت طرفا في جميع الاتفاقيات التي تمت في هذا الشأن ، واعلم مدى الاستجابة والمساعدة التي قدمها الاتحاد السوفياتي .

ـ وما هو الحجم الحقيقي لما انجزناه من تصنيع بمساعدة الاتحـــــاد السوفيتي والدول الاشتراكية؟

ـ لقد تضاعف حجم الصناعة المصرية منذ عام ١٩٥٢ حتى الان ثماني مرات اي ان ما لدينا الان يصل الى ٨٠٠٪ ممـــا كان لدينا في ذلك الوقت . ان الانتاج الصناعي المصري يقدر بحوالي ٢٧٠٠ مليون جنيه ، وهذا يعني ان هناك سلعا تنزل الـــى الاسواق المحلية ويصدر

بعضها الى الخارج وتصل قيمتها الى الرقم الذي ذكرته · وهذا يعني ايضا ان هذه السلع تستهلك لان الشعب المصري بمختلــف فئاته في حاجة اليها · وبذلك اغنتنا التنمية الصناعية عن استيراد سلع بنفس القيمة ، لم يكن من اليسير تدبير النقد الاجنبي اللازم لاستيرادها · ومن هنا نستطيع القول دون مبالغة ، ورغم كل ما لا يــزال ينقصنا ، ان الاقتصاد المصري اصبح يعتمد في المقام الاول على انتاجه الذاتي ·

ـ الم يحدث ان استغل الاتحاد السوفياتي حجم معوناته لفرض اسلــوب معين في تخطيط اقتصادنا او صناعتنا ؟

ـ لم يحدث هذا على الاطلاق ، ولم يتدخل احد في خطتنا ·
لقد كنا نضع الخطة الخاصة بنا ثم نذهب اليهم ونقــول : هذه خطتنا ونريد المساعدة على تنفيذها ·

وفي احيان كثيرة لم يكتف السوفيات بتقديم مجــرد المساعدة على بناء المصانع كما سبق ان ذكرت ، ولكنهم يبادرون بحل ما يعترضنا من عقبات لا تدخل مباشــرة في عمليات التصنيع · واضرب لذلك مثليــن :

المثل الاول : يتعلق ايضا بموضوع مجمع الحديد والصلب· فقد كان اتفاقنا حول انشاء المجمع يبدأ بمشروع « الدرفلة » اولا (والدرفلة تعني تحويل « بلاطــات » الصلب الضخمــة الــى صفائح مختلفة السماكة) · وبسبب تأجيل المشروع الاساسي من جانبنا فقــد انتهى العمل في مشروع « الدرفلة » قبل تشغيل « الفرن » الذي ينتج بلاطات الصلب · وكان يلزم لتشغيل « الدرفلة » ٣٠٠ الف طــن صلب والا توقف العمل · ولم يكن في مقدورنا ان نستورد الصلب (٣٢٠ دولارا للطن في ذلك الوقت) فوافق الاتحاد السوفياتي على توريد الصلب على ان يتقاضى الثمن بعد الانتاج ·

والمثل الثاني : يتعلق بمصنع المطروقات · وهو المصنــع الذي

يدخل انتاجه في صناعة اللوريات والتراكتورات · فقد كان لدينا فائض انتاج في هذا المصنع وعندما عرضت على السوفيات ان نصدره لهم وافقوا على الفور · ونحن نصدر اليهم حاليا بعض انتاج مصنع المطروقات في حلوان كاجزاء من التراكتورات التي تصنع في الاتحاد السوفياتي ·

لا شك ان هذا نوع من المساعدة بالنسبة لنا ، فهم يعاونوننا على بناء وتشغيل المصانع ثم يتبادلون الخبرة معنا ، رغم ان خبرتهم الصناعية تسبقنا بالتأكيد · ولست هنا في مجال الدفاع لان هذه حقائق معروفة وواضحة ·

لا ازمات صناعية

– ألم يتعثر التعاون الصناعي مع الاتحاد السوفياتي او يتاثر بسبب بعض الازمات السياسية ؟

– بالنسبة لي في مجال الصناعة لم يحدث · ورغم ما حدث من سوء تفاهم سياسي عام ١٩٥٩ فقد واصلت التعامل معهم في مجال الصناعة دون أي تأثر بالازمة العامة · ويومها امتدح الرئيس الراحل جمال عبدالناصر هذا التصرف لانني لم اجعل للوضع السياسي في ذلك الوقت اي اثر على استمرار التعاون ·

واستطيع ان اقول ان الامر لم يقتصر على عدم وقوع ازمات ، لكن التعاون كان في نمو مستمر · وذلك الى درجة ان اقترحت عليهم عام ١٩٧١ (وكنت عضوا في وفد المباحثات في موسكو) موضوع التكامل الاقتصادي بيننا · وقد لاقى الاقتراح اهتماما غير محدود من القادة السوفيات ·

– على أي اساس يتم هذا التكامل ؟

لقد وصلنا الى درجة من التعاون تسمح بأن نتجاوزها الى مستوى ابعد · بمعنى ان الاتحاد السوفياتي يعطيني ما اطلب من

المصانع بحيث انتج اكثر من حاجتي واصدر له باقي الانتاج او اصدر له كل الانتاج في بعض السلع التي لا احتاجها بما يتفق مع حاجته هو لهذا الانتاج ٠ وبذلك فهو يلبي حاجاته ويساعدني في نفس الوقت على تكثيف عملية التنمية الاقتصادية في مصر ٠

وقد جاء الى مصر وفد سوفياتي وتوصلنا الى اتفاق حول بعض المشروعات ، على ان يصدر لنا الاتحاد السوفياتي الآلات والمصانع لنعيد نحن تصدير كل الانتاج له ٠ وهذه مرحلة متقدمة عـــــن مجرد القروض وبناء المصانع ٠ وقد ضربت مثـــالا لذلـــك بمصنع الخزف الصيني ، فبدلا من أن يقيم الاتحاد السوفياتي مصنعا لانتـــاج الخزف الصيني ، يقدم لي الآلات والمعدات لتوسيع مصنعنا مقابـــل ان التزم بتصدير كمية معينة من الانتاج الى الاتحاد السوفياتي ٠ وهذا هو احد اوجه التكامل والتخصص وعدم تكرار الصناعات هنا وهناك ٠ وبذلك اضمن الحصول على الآلات والمصانع دون قروض ويضمن هو استكمال السلع اللازمة لخطته ٠

وبالمثل اثرنا معهم مشروع فوسفات « ابـــــو طرطور » ٠ فقد عرضنا عليهم ان ينفذوا المشروع لدينا مقابل بعض انتاج الفوسفات ٠ وذلك بدلا من ان يستوردوا الفوسفات من مناطق اخرى وبدلا من ان احصل على قرض لتنفيذه ٠ وللاسف تعطل المشروع لاسباب اخرى ، وهو يبحث الان من جديد ٠

اين البديل ؟

ـ لكن هل يعني هذا انه ليس هناك بديل عن الاتحاد السوفياتي اذا اردنـــا تصنيعا حقيقيا ؟

ـــ يجب ان نكون واضحين ٠ ليس هناك شيء في العالم ليس له بديل ٠ لكننا نستطيع ان نقول ان الاتحاد السوفياتي كان وسيظل ويجب ان يظل اساسيا بالنسبة لامكانية التصنيع بالصورة التي نأملها للنمو

الصناعي في بلادنا ، لان المسألة ليست بالبساطة التي قـــد يتصورها البعض • فكلما تقدمنا في مراحل التصنيع تنفتح امامنـــا امكانيات صناعية لم تكن ممكنة او متصورة قبل النمو الصناعي •

نحن نبدأ اولا بصناعة السلع الاستهلاكية ثـــم نتدرج في الصناعات حتى نصل الى الالات الثقيلة والمعقدة • وكلما دخلنا مرحلة من هذه المراحل زادت حاجتنا الـــى استثمارات هائلـــة وخبرة كبرى • اذن فتقدمنا في مراحل التصنيع يستدعـــي الحصول على مساندة من دولة صناعية متقدمة وذات امكانيات كبيرة ولديها الرغبة في اقامة الصناعة لدينا •

ولا مفر ايضا من ان نذكر امثلة عملية تتعلق بـــدولة كبرى كالولايات المتحدة الاميركية • كان الرئيس الراحل عبد الناصر يعرف احد مديري البنك الدولي وهو اميركي اسمه «وودز» • وكان وودز من الشخصيات الصريحة الواضحة مما اكسبه ثقة عبد الناصر • وجـاء وودز يوما الى القاهرة والتقى بالرئيس الراحل عبد الناصر حيث ناقشا امكانية مساهمة البنك الدولي في عمليات التنمية في مصر • وبعد اللقاء حدثني الرئيس عبد الناصر تليفونيا وقال لي بالحرف الواحد « أنـــا كان عندي دلوقت مستر وودز من البنك الدولي • وقال لي ريح نفسك ولا تطلب منا قروضا للصناعة ، لانه ليس من سياسة البنك الدولـي ان يساعد دولة كمصر على التصنيع ، لان سياسة البنك محكومة بسياسة الولايات المتحدة الاميركية وسياسة الولايات المتحدة الاميركية لا تشجع على معاونة الدول النامية على التصنيع » واضاف عبد الناصر « أمامك الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ، ولا تضيع وقتا مع غيرهم» !

اذن فليس المهم ان تتوافر الخبرة والقدرة لدى دولة ما لكـــي تساعدنا على تصنيع بلادنا • المهم ان تتوافر لديها الرغبة في المعاونة والا يتعارض هذا مع سياستها ، خصوصا اذا كانت ظروفنا لا تسمح بأن نقدم لها اغراء ماليا مقابل الالات والمصانع والخبرة وهذا هو الذي يجعل صورة التعاون مع الاتحاد السوفياتي تختلف عن غيرها • ومـع

ذلك فنحن نتعامل او نحاول ان نتعامل دائما مع العالم كله · وانا لا استطيع ان اقول اننا لا نقيم مصانع الا مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية ، لانه حتى الاتحاد السوفياتي لا يستطيع ان يعطينا كل شيء أولا ، ثم هناك انواع من الصناعات تمتاز بها دولة معينة ثانيا· واذا كنت في حاجة الى مثل هذا النوع واستطيع ان احصل عليه بشروط معقولة من السويد مثلا او غيرها فنحن لا نغلق الباب ·

ان اي امكانية تضاف الى قدرتنا في التوسع الاقتصادي نرحب بها · و «الانفتاح» الاقتصادي يلقى ترحيبا طالما كان في اطار مبادئنا وقوانيننا ومصلحة مصر · وبنفس الشروط نرحب بأي أموال عربية تساعدنا على التعاقد مع اي دولة في اي مكان ·

ـ يتردد احيانا بعض الحديث عن ضرورة وجود «توازن» في علاقاتنا مع الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي بنفس القدر ؟

ـ من أين يأتي التوازن ؟ هل في الصناعة فقط ؟ التوازن يجب ان يأتي في كل الاوضاع · وانا لا استطيع ان احكم على الامور اذا لم تتجاوز نظرتي موقع قدمي · ان لنا تاريخا طويلا في التعامل مع الغرب والولايات المتحدة في جميع المجالات · وعندما قامت الثورة فتحت الباب للتعامل مع الولايات المتحدة في اغلب الاوقات · ولا يجب ان ننسى انه عندما اراد عبد الناصر ان يسلح الجيش لجأ اولا الى الولايات المتحدة الاميركية · وسافر يومئذ علي صبري وظل حوالي سبعة شهور في اميركا ينتظر تنفيذ الاتفاق دون فائدة · ومن ثم لجأنا الى تشيكوسلوفاكيا عن طريق الاتحاد السوفياتي ·

وهناك مسألة السد العالي أيضا · فقد لجأنا الى الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا وتم الاتفاق معهما ، ثم تراجعت الدولتان عن الاتفاق لاسباب سياسية · لم نكن اذن الرافضين ، ولكن هم اللذين سحبا العروض وتراجعا عن الاتفاقيات · وبعدها أمم عبد الناصر شركة قناة السويس وتم تمويل السد العالي عن طريق الاتحاد السوفياتي ·

ومن هنا فنحن لا نلقي احكاما مجردة ولكننا نستمد احكامنا من واقع تجاربنا وخبراتنا · ومن هذا يتضح ان مجال التعاون مع الولايات المتحدة الاميركية تحكمه اعتبارات اميركية تتعارض مع مصالحنا · ولو ان الولايات المتحدة اتخذت موقفا اخر لما كانت هناك

عقبات من جانبنا · ذلك ان اساس مواقفنا هو مصلحة مصــــــر أولا واخيرا ·

لكن الامر لا يقتصر على ذلك بالنسبة للولايات المتحدة الاميركية· هناك المشــكلة الاساسية وهي صراعنا مع اسرائيل · ما هــو موقف الولايات المتحدة من هذا الصراع ؟ هل كان مؤيدا للحق العربي ؟ وما هو نوع السلاح الذي قتل به الاسرائيليون ابناءنا ؟ أليس هو الســلاح الاميركي ؟ ومن الذي دعم اسرائيل بالجسر الجوي المعروف اثنــاء معارك اكتوبر (تشرين الاول) ؟ وفي نفس ذلـــك الوقت كان الاتحاد السوفياتي يعاوننا ويساندنا ويرسل لنا الاسلحة ··· ربما لم نأخذ كل ما نريده ، وهذا موضوع لا اعرف تفاصيله ، لكنه كان يعاوننا · وكان العون بالقدر الذي مكننا من تحقيق انتصار ٦ أكتوبر (تشرين الاول)· وكمواطن مخلص لمصلحة مصر لا استطيع ان اوازي او اسوي بيــن الموقفين · وهذه هي صورة التعاون على مدى ٢٠ عاما او اكثر · فما الذي يجعلني اغير الصورة ؟ ربما المستقبل !

لكن هذا موضوع اخر ·

أما اذا نظرت للتجربة مع الاثنين فانني ارى الاتحاد السوفياتي دائما في موقف الصديق ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بينما الولايات المتحدة الاميركية كانت تقف دائما ضد محاولات تنمية بــــلادنا اي اقتصاديا ، وضد اهدافنا اي سياسيا ، وكانت تحاربنا عن طريق امداد اعدائنا بالسلاح والمال ·

انني اتساءل : هل كانت اسرائيل تجرؤ على العنجهية ومواصلة العدوان بدون المساندة الاميركية ؟

ان قادة الكونغرس يتصدرون المظاهرات المعادية للعرب وللشعب الفلسطيني قبل وبعد ذهاب الوفد الفلسطيني برئاسة ياسر عرفات الى الامم المتحدة ·

ولذلك لا استطيع ان اقول ان هناك توازنا الا اذا تغيرت الامور

واصبح هناك توازن في السلوك ٠ وهذا ما لا اتبينه حتى الان ٠ وربما كان السبب ان اهدافنا لا تتفق مع اهداف الولايات المتحدة ٠ فنحن نقول ان من اهدافنا محاربة الاستعمار ٠٠ ولما كانت اميركا هي الاستعمار اذن فهناك تناقض بيننا ٠ لكن اذا عدلت اميركا عن سياستها يتغير الموقف طبعا ٠

هذه هي الامور ببساطة ، وكما هي في الواقع ، بدلا من ان نعقدها كمتاهات نظرية وفكرية ٠

ـ سؤال اخير : كيف يمكن ان نتجنب ما يحدث من عثرات او ازمات في طريق العلاقات المصرية السوفياتية ؟

ـ اعتقد ان السبب المباشر للازمات ربما كان راجعا لحرصنا او رغبتنا في الاسراع بالمعركة ٠ وربما كنا نطلب احيانا اشياء من الاتحاد السوفياتي ولسبب او لاخر لم يستطع امدادنا بها في الوقت الملائم مما اعطانا الاحساس بأن الاتحاد السوفياتي ربما لا يرغب في مساعدتنا٠ والحقيقة ان هذا الموضوع اثير في مباحثاتنا مع القادة السوفيات وكان ردهم ان « قرار المعركة خاص بكم ، ونحن نطلب منكم شيئا واحدا وهو الا تدخلوا المعركة الا اذا كنتم مطمئنين لكسبها مئة بالمئة ، لان اي هزيمة اخرى ستكون قاضية » ٠

هذا هو الموقف المتكرر لهم عند اثارة الموضوع ٠ ومن المحتمل ان يكون تلهفنا نحن الى الاطمئنان الكامل قبل دخول المعركة دفعنا لان نطلب اسلحة كثيرة جدا ، مما يتضح من كميات الاسلحة والعتاد التي استخدمت في المعركة فعلا ٠ ومن المحتمل ان هناك اعتبارات اخرى لدى الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت فاحيانا كان يعطينا ما نطلب واحيانا لم يعطنا واحيانا كان يقول ان هذا النوع بالتحديد ليس متوفرا لدينا ٠٠ الخ ٠

وربما خلق هذا بعض سوء الفهم ٠ لكن اعتقد ان ما حدث في اكتوبر (تشرين الاول) والجسر الجوي الذي اقامه الاتحاد السوفياتي

لمساندتنا وموقفه بعد ذلك كاف لان ينهي هذا النوع من سوء التفاهم .

انني لا ارى مواقف او أسبابا اخرى لسوء التفاهم . لانه ليست هناك تناقضات في مواقفنا . فهو مؤيد لحقنا السياسي في المجال العالمي على طول الخط ، ومؤيد لجهودنا من اجل التنمية الاقتصادية على طول الخط ، وقام بمساندتنا عسكريا مما لعب دورا في تحقيقنا للانتصار ، لم يكن ممكنا بدونه .

ومن اجل هذا لا ارى ان هناك تناقضا يبرر استمرار الاختلافات بيننا وبين الاتحاد السوفياتي . واذا وقع مثل هذا الخلاف بين الاصدقاء ـ وهذا طبيعي ـ فيجب ان يظل من الامور الثانوية التي لا تؤثر على استمرار الخط الاساسي في علاقاتنا .

وليس هذا من قبيل التبسيط للامور ، ولكن لانه كما يتضح في حديثي فقد حصلنا وما زلنا نحصل وسنظل في حاجة باستمرار الى التعاون المستمر والمتزايد مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية .



(خالد محيي الدين)

ـ متى بدأ تفكير مجلس قيادة الثورة في اقامة علاقـــــات مع الاتحاد السوفيتي ؟

ـ عضو واحد هو الذي عارض في اقامة العلاقات !

ـ اساس الخلاف بيننا هو التناقض بين ما نتوقعه وبيـــن مـا يستطيعه الاتحاد السوفيتي ·

ـ ليس الاتحاد السوفيتي بلا عيوب ·

ـ المهم ان نحدد نوع العلاقة التي نريدها مع الاتحاد السوفيتي·



خالد محيى الديــن

السياسي ·· الضابط ·· المثقف ، الذي مارس السياسة بين الناس طالبا في الجامعة وضابطا في الجيش وعضوا في مجلس قيادة الثورة · عندما لـم يتجاوز عامه التاسع والعشرين لعب الصاغ(الرائد) الشاب أهم ادوار حياته اذ شارك في التحضير لثورة ٢٣ يوليو ، وفي قيامها ليلة الثاني والعشرين ·

··· وجه مصر الشعبي الاكثر جاذبية ، في المؤتمرات والمحافل الشعبية على نطاق العالم ·

***

قلنا للاستاذ خالد محيي الدين :

هل يمكن ان تحدد بداية التفكير لدى مجلس قيادة الثورة ، فــــي اقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي ؟ وعلى اي اساس نشات هذه الفكرة ؟

قال الاستاذ خالد محيى الدين :

أستطيع ان احدد ان التفكير في اقامة علاقــات مـــــع الاتحاد السوفياتي بدأ بعد شهرين فقط من قيام ثورة ٢٣ يوليو ·

وقد نشأت الفكرة بعد ان شرح الدكتور عبد الجليل العمـــري وزير المالية وقتئذ الموقف الاقتصادي السيء الذي تمر بـــــه البـلاد

والاحتمال الاكبر لعدم القدرة على تصريف محصول القطن في ذلك العام ، مما سيحدث أبلغ الاضرار بالاقتصاد القومي ٠

وعلى الفور تم الاتفاق على ان نتصل بسفارات الدول الاشتراكية في القاهرة لمناقشتهم في امكانية شراء القطن المصري ٠ واذكر أنه كان على السيد يوسف صديق ان يتصل بالمستشار التجاري السوفياتي ، وكان علي أن اتصل بالمستشار المجري٠٠٠ الخ ٠

وقد نقلنا لمجلس قيادة الثورة نتائج الاتصالات ، وشرحنا وجهة نظرنا ٠

لم يكن هناك تصور كامل في ذلك الوقت لمدى قدرة الدول الاشتراكية على حل مشكلات مصر ٠ كان التصور السائد ان رأس المال الاجنبي (الغربي) يمكن ان يحل مشاكلنا الاقتصادية ٠

نشأت الخطوة الاولى اذن في اقامة علاقات مع الاتحاد السوفياتي عن ضرورات اقتصادية ٠

أما الخطوة الثانية التي اتخذت بالفعل فهي ارسال بعثات اقتصادية وتجارية للدول الاشتراكية ، لان الوضع الاقتصادي لدينا كان لا يزال سيئا ، وبدأ التفكير الجدي في ضرورة ايجاد علاقات تجارية متنوعة مع مختلف دول العالم ٠

وكانت بعثتنا الى الاتحاد السوفياتي برئاسة المهندس حسن رجب وعضوية احمد فؤاد وصلاح هدايت واخرين ٠ وعادت البعثة من موسكو لتتحدث (وهذا للمرة الاولى) عن امكانية الحصول على مساعدات وقروض وبناء مصانع وشراء أسلحة من الاتحاد السوفياتي ٠ ولكن للحقيقة لم يكن الامر بالوضوح الذي عرفناه في علاقتنا مع السوفيات بعد ذلك ٠ لقد كانت مجرد بدايات في فترة مبكرة من أواخر عام ١٩٥٣ وأوائل عام ١٩٥٤ ٠

– هل تذكر اي معارضة داخل مجلس قيادة الثورة لهذا الاتجاه الجديد ؟

قال خالد محيي الدين :

المعارض الوحيد في ذلك الوقت كان المرحوم جمال سالم · وكانت الحجة الاساسية هي ان علي صبري سيسافر الى أمريكا للحصول على أسلحة وفقا للاتفاق السابق المعروف · ومن ثم فقد يـــؤدي الاتصال بالاتحاد السوفياتي الى عرقلة الاتجاه الاخر · ومن المهم على اي حال ان نذكر ان الحديث في ذلك الوقت عن قدرات الاتحـــــاد السوفياتي الصناعية وامكانياته الاقتصادية واستعداده للمساعدة الخارجية كان جديدا تماما ، وغير مألوف على نطاق واسع · ولم تحدث المعارضة من جانب جمال سالم اثرا ذي بـــال · وظل تقرير بعثة حسن رجب من أهم التقارير التي قدمت لمجلس قيادة الثورة عن العلاقات مـــــع الاتحاد السوفيتي ·وفي تقديري (رغم انني تركت مجلس قيادة الثورة بعـد ذلك عام ١٩٥٤) الا انني اعتقد ان ذلك التقرير كان له اثـــره عندما تأزمت الامور بعد ذلك مع الغرب ابتداء من الغـــارة الاسرائيلية على قطاع غزة الى أن تم توقيع صفقة السلاح المعروفة مـــــــع الاتحاد السوفيتي ·

وقد ذكر لي الرئيس الراحل عبد الناصر ان حادث غزة فـــي ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ كان بداية التحول · وقال « لقد وجدت نفسي عاجزا عن الحصول على السلاح لصد العدوان الاسرائيلي المستمر ، وكان لا بد ان ابحث عن طريق اخر لتسليح الجيش » ·

ـ هناك اكثر من رواية عن المقدمات التي أدت الى عقد صفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفياتي ؟

قال خالد محيي الدين :

لا اعتقد ان هناك اي تعارض بين الروايات المختلفة · وكلها في النهاية تكمل بعضها البعض · والمعروف من حديث عبد الناصر انـــه تحدث الى شوان لاى ، كما انّ صلاح سالم تحدث ايضا في نفس الوقت الى شوان لاى ، وقال شوانْ لاى ان الصين لا تستطيـــــع ان تسلح

الجيش المصري ، لكنه سيتحدث الى السوفيات في هذا الامر · وهذا لا ينفي الاتصالات التي حدثت قبل ذلك ، ولا يمنع من مبالغات بعض الناس في تقدير أدوارهم في هذه العملية · فصلاح سالم مثلا كان يقول انه قام بالدور الاكبر ، ومحمد نجيب اشار الى شيء من هذا القبيل في مذكراته ، لكن النقطة الاساسية هي استعداد السوفيات أنفسهم للاستجابة بصرف النظر عمن قام بهذا الدور او ذلك · لقد اتضح استعداد السوفيات للاستجابة لمطالبنا في وقت مبكر · واذكر مرة أخرى ان تقرير بعثة حسن رجب والذي اكده صلاح هدايت مع مجلس قيادة الثورة تعرض أيضا لموضوع السلاح والقروض ، واستعداد الاتحاد السوفياتي لذلك · وان كان هذا الامر لم يلفت النظر في ذلك الوقت المبكر كما يجب بسبب الظروف التي شرحتها من قبل · كما انه كان من السهل لدى البعض تقديم حجج تعارض في الاقدام على هذه الخطوة ·

ثم لا ننسى ان المعارضة كانت تقوم على نوع من الشك والحذر · فقد بنيت امال عريضة على صدور قانون الاستثمارات الاجنبية في ذلك الوقت ، وانه سيفتح الطريق لتصنيع وتطوير الاقتصاد المصري ·· فما الداعي لان نتخلى عما يبدو مضمونا من اجل المجهول الذي لا أعرفه !؟·· كان هذا هو المنطق السائد ··!

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك تحيز أعمى ضد الاتحاد السوفياتي · كان هناك خوف او تخوف من ان تعجز الدول الاشتراكية عن مساعدتنا · وكانت الدعايات الغربية ضد الاتحاد السوفياتي والشيوعية في أوجها · واستغلت في ذلك الوقت ، الفترة التي سميت «بالستالينية» والتي لم يكن للاتحاد السوفياتي اثناءها علاقات واسعة بالعالم لسبب ظروف خارجة عن ارادته ·

ورغم هذا لا أستطيع أن اقول انه كان هناك خط « معاد للشيوعية » او للاتحاد السوفياتي داخل مجلس قيادة الثورة · لكن كان هناك اعضاء في المجلس معادين للشيوعية للاسباب التي ذكرتها من قبل ، وكانوا يخشون من نمو حركة الطبقة العاملة بشكل سياسي ·

والدليل على ذلك هو موقف مجلس قيادة الثورة من التصديق على اعدام العاملين خميس والبقرى في حوادث كفر الدوار • فقد وافق المجلس على الاعدام ، رغم معارضة جمال عبد الناصر ويوسف صديق وأنــــا •

– لكن المجلس لم يتخذ نفس الموقف في قضية الاقطاعي عدلى لملوم الذي عارض الثورة بالسلاح ؟

– هذا صحيح ، لكنني ايضا من جهتي لم أوافق على اعدام لملوم لانني ضد الاعدام من حيث المبدأ •

– هل يعني هذا ان الثقة في الولايات المتحدة الامريكية كانت متوفرة ؟

قال خالد محيى الدين :

لا بد ان ندرك ان الفترة الدقيقة عــــن دور الولايات المتحدة الامريكية لم تكن قد وضحت بعد • ولم يكن هناك تصور واضح للخطر الامريكي • بل كان هناك اعتقاد بأن الولايات المتحدة يمكــن ان تلعب دورا ايجابيا للضغط على الاستعمار البريطاني لكي يجلو عــن مصر، على اساس التصور التقليدي بأن القوى الامبريالية هـــي بريطانيا وفرنسا فقط • هذه حقيقة لا بد ان نعترف بها •

– ومتى بدأ ادراك حقيقة دور واهداف الولايات المتحدة الامريكية ؟

قال خالد محيى الدين :

عندما رفضت ان تسلحنا ضد الغارات الاسرائيلية المتصاعدة ، وحاولت فرض مشروعات الاحلاف العسكرية ، ثـــم سحبت لاسباب سياسية عرض تمويل مشروع السد العالي ••• الخ •

وأذكر الاحساس بالخطـر الاسرائيلي ودور الولايات المتحـدة في الامر عندما قابلت في سويسرا في ذلك الوقت حسن ابراهيم ، وقال لي انه جاء لكي يبحث عن مصادر للسلاح لان بن جوريون عاد الـى الحكم في اسرائيل ونحن نتوقع ان تشن اسرائيل الحرب ضدنا · وقال لي ايضا (حيث كنت منفيا في سويسرا) انهم يستعدون للاشتراك في مؤتمر باندونج ، وانهم يفكرون في انشاء علاقات دولية جديدة لمواجهة الخطر الذي تشكله اسرائيل ·

لقد أعلن المسئولون الاسرائيليون بعد الغارة على غـــزة انهم يستهدفون الحط من هيبة الجيش المصري والنظام الجديد في مصر · وكان على الثورة مواجهة ذلك التحدي بالاجراءات الضرورية ·

ـ اذا كانت هذه هي صورة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية في ذلك الوقت ، هل يمكن ان نقول ان النظرة كانت واحدة للدولتين بوصفهمـا من «الدول الكبرى» او الدولتين الكبريين في العالم ؟

قال خالد محيي الدين :

لا أستطيع أن اصل الى هذا الاستنتاج · فلم تكن النظرة واحدة الى الدولتين · كان الاتحـــاد السوفياتي ينظر اليه دائمـــا بوصفه الاحتياطي لنا بشكل من الاشكال ، بدليل انه عنــــدما تأزمت الامور اقتصاديا لجأنا اليه ، وعندما تأزمت مشكلة الامن الخارجي لجأنا اليه· لكن هذا لا يمنع من ان الغالبية العظمى لقادة الثورة كانوا قد درجوا على فكرة الخوف من الشيوعية (نتيجة الدعايات السائدة) خاصة أن الاتحاد السوفياتي يرتبط دائما كدولة بفكـــرة العقيـــدة السياسية والايديولوجية ·

ومع ذلك فأمام المشاكل العملية والحرص على المصالح العليـــا للوطن تتراجع كل المخاوف ويصبح الهدف هو الوصول الى أفضـــل الوسائل لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والعسكرية · ومن ثـم تصبح الامور الاخرى في الدرجة الثانية او الثالثة من الاهمية ·

وليس في ذلك اي غرابة ٠

ان رجل الشارع الامريكي الذي أفزعته الدعايـــات الامريكية المكثفة والمتواصلة عن الاتحاد السوفياتي والشيوعية ، أصبح الان أقل استجابة لهذه الدعايات ، واكثر تقبلا للاتحاد السوفياتي ، بعد ان أدى الانفراج او التعايش بين الولايـــات المتحدة الامريكيـــة والاتحاد السوفياتي الى توسيع دائرة الحوار والتعامل الاقتصادي والثقافـي والسياسي ٠

ولقد ساعد على مزيد من الفهم من جانبنا للاتحاد السوفياتـــي (بعد صفقة السلاح واثرها النوعي) ان الاتحاد السوفياتي لم يكــن ضد وجود علاقات امريكية مصرية ٠ لكن الولايات المتحدة هي التــي كانت تسعى جاهدة لكي لا تكون لمصر علاقات بالاتحاد السوفياتــي سواء متساوية مع علاقة مصر بأمريكا ،او حتى مجرد علاقات طيبــة وطبيعيـــة !٠

ولكن الرغبة العميقة والمشروعة لدول العالم الثالث في تحقيق ذاتها وتطوير مجتمعاتها كانت تصطدم دائما بمقاومة من الولايـــات المتحدة الامريكية ٠ وهذه هي نقطة التحول في العلاقات بيـــن مصر والاتحاد السوفياتي ٠ فبينما يرحب الاتحاد السوفياتي باستقلال وتحرر الدول المتخلفة لان ذلك يخرجها من نطاق الاستعمار ، ويصفي النظـام الاستعماري كله ، نجد الولايات المتحدة الامريكية تستشعر الخطر من استقلال أي شعب ٠ وفي رأيها ان الشعوب ستخرج مــــن الدائرة الامبريالية اما عن طريق ثورة اشتراكية ضد النظام الرأسمالـي ، او عن طريق ثورة وطنية تستهدف الاستقلال أيضا عن النظام الرأسمالي العالمي ، وتخرج عن الدور المرسوم لها في اطار «النظام العام» ٠

وهنا يصبح الجميع في نظر الولايات المتحـــــدة الامريكية «شيوعيين أو ـ «كالشيوعيين» ! ولذلك فوجهة نظري ان وجـــود المعسكر الاشتراكي وقدرته على سد الاحتياجات الوطنية للشعوب هو

الذي يشجع حركات التحرر الوطني على مقاومة الاوضاع الاستعمارية القديمة · ولذلك فلولا توفر هذا «البديل» وهو الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي يصبح موقف حركة التحرر الوطني فـــــي غاية الصعوبة ·

والا فماذا كان يمكن لعبد الناصر ان يفعل عندما سد الامريكيون كل السبل في وجهه ؟ ·· انني اكرر مرة اخرى ان تقرير بعثة حســن رجب الى موسكو كان في «خلفية» تفكير عبد الناصر وهــــو يواجه الوعود والمراوغة الامريكية التي انتهت بالقطيعة ·

ـ هل كان موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة المصرية في بدايتها نابع من حاجات وضرورات عملية او لاسباب فكرية ؟

قال خالد محيي الدين :

لعل من العوامل التي ميزت موقف الاتحاد السوفياتي انه لـــم يتخذ موقفا قاطعا على وجه السرعة من ثورة يوليو في بدايتها · ولو راجعنا تعليقات الصحف والاذاعات السوفياتية في تلك الفترة لا نجد اوصافا معادية لثورة يوليو · وربما كان الوصف السائد ان انقلابـا عسكريا وقع في مصر ·

ـ ألم يصف احد المعلقين السوفيات ما حدث بانه نوع من الفاشية ؟

قال خالد محيي الدين :

لا اذكر هذا ، وربما حدث في فترة لاحـــقة بعد الصـــــدام مع الشيوعيين · لكن عموماًلم تكن هناك حملة هجوم مـــــــن الاتحاد السوفياتي ضد الثورة · بل كانوا يتابعون بدقة ما يحدث · وعنـدما صدر قانون الاصلاح الزراعي وصفوه بانه اجراء ذكي مــن القائمين بالثورة ·

ـ لكن كان هناك تحفظ في البداية من جانبهم ؟

قال خالد محيي الدين :

طبعا كان هناك تحفظ · ولا ننسى ان الاسلوب الذي تمت به الثورة عن طريق الجيش لم يكن مألوفا في الثورات الوطنية · اذ كانت الانقلابات العسكرية الموجهة من القوى الاستعمارية المختلفة هي الاسلوب السائد في مختلف الدول التابعة او المستعمرة لتغيير الواجهة السياسية الفاسدة دون التعرض للمضمون الاجتماعي الذي يغذي تلك الواجهة ·

وما أعنيه في الاساس ان الاتحاد السوفياتي لم يتسرع باتخاذ موقف قاطع او واضح ضد ثورة ٢٣ يوليو ·

ولذلك فحتى خلال أزمة مارس ١٩٥٤ حرص عبد الناصر بأن يبين ان علاقاته تتحسن بالاتحاد السوفياتي ، وحاول ان يفهمني ذلك لكي يشجع الاتجاه اليساري في مصر على تأييده اثناء الصراع المعروف يومئذ ، او على الاقل لكي لا ينضموا الى جبهة المعارضين له· وهذه حقيقة تاريخية يجب الاعتراف بها·

★ ★ ★

– كيف تطورت العلاقة الى أشكال ارقى من مجرد الضرورات الاقتصادية والعسكرية ؟

قال خالد محيي الدين :

مرت العلاقات بمراحل : أولها كما ذكرنا يبدأ من صفقة الاسلحة حتى عام ١٩٥٨ ، وخلال ذلك أعطى الانذار السوفياتي لدول العدوان الثلاثي دفعة كبيرة للعلاقات ، كما أكسب الاتحاد السوفياتي شعبية في العالم العربي كله · لكن حتى عام ١٩٥٨ عندما تأزمت العلاقات بسبب الوضع في العراق كانت الرغبة هنا هي اقامة توازن في العلاقات بمعنى ان نحصر العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية في

حدود العلاقات العسكرية والاقتصادية دون ان نعطـــــى للعلاقات السياسية نفس القدر من الاهمية · لكن أزمة عام ١٩٥٨ بيـــــن مصر والاتحاد السوفياتي اعطت للعلاقات مفهوما جديدا في رأيي · فعندما هاجم عبد الناصر الاتحاد السوفياتي والشيوعيين في العالم العربي ، ولم يتراجع الاتحاد السوفياتي عن الوفاء بالتزامه بالنسبة للسد العالي أحدث ذلك تغييرا كبيرا في تفكير عبد الناصر · ويتضح هذا التغيير مما قاله لي المرحوم صلاح سالم في هذا الشأن · لقد كان صلاح سالم مدعوا لزيارة الاتحاد السوفياتي بصفة شخصية ابان الحملة المتبادلة بين مصر والاتحاد السوفياتي · وعندما ابلغ صـــــلاح سالم الرئيس الراحل عبد الناصر عن اعتزامه السفر ، أبدى عبد الناصر ارتياحـا شديدا لذلك وأعرب عن أمله في أن تتوقف الحملة الاعلامية المتبادلة ، وقال ان استمرارها ليس في صالح مصر وان سوء العلاقة مع الاتحاد السوفياتي يجعل مصر أسيرة للولايات المتحدة الامريكية ·

والحقيقة ان هذا يمثل جوهر تفكير عبد الناصر وهو الاستقلال الوطني وعدم الخضوع لاي كتلة دولية · انها قضية حاسمة لدى عبد الناصر طوال حياته · وحتى عندما اضطر عبد الناصر الى أن يطلب من الاتحاد السوفياتي خبراء عسكريين كـان حريصا على الاحتفاظ باستقلال مصر وحريتها في الحركة · انه يعمل علــى تدعيم العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع الاتحاد السوفياتي الى أقصى مدى ممكن ،مع حرصه الشديد على الاستقلال ·

وهكذا أدرك الطرفان في المرحلة الثانية بعد عـــــام ١٩٥٨ ان العلاقات الاقتصادية والسياسية وغيرها تهدف الى ما هو أبعد مـــن الالتقاء الايديولوجي المباشر · فمصر دولة تقاوم الاستعمار وهذه هي المسألة الاساسية او الاهم · وفي رأي الاتحاد السوفياتي ان تدعيـم استقلال مصر السياسي والاقتصادي وتطوير الاقتصاد المصري الذي يرتكز في الاساس على القطاع العام سيحدث على المـــــدى البعيد تطورات ايجابية في كل الاتجاهات · ولذلك اصبح أي خلاف ايديولوجي او سوء فهم من اي نوع مسألة ثانوية ازاء المحافظة على خط التعاون

الاساسي بين مصر والاتحاد السوفياتي من اجل الاهداف المشتركة ·

ـ اذا كان الطرفان كما تقول قد ادركا المسائل الاساسية والمسائل الثانوية في العلاقات ، فما الذي أثار ويثير سوء الفهم من حين لاخر ؟

قال خالد محيي الدين :

الملاحظة العامة انه رغم وجود اتفاق على الاستمرار في علاقات وطيدة ، الا انه منذ عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٦٧ كانت تثـــــور بعض المشاكل بسبب الفارق بين ما تتوقعه مصر من الاتحاد السوفياتي وبين ما يستطيع الاتحاد السوفياتي ان يقدمه وفقا لظروفه · واذكر انه كانت هناك مشكلة مستمرة حول المسائل الخاصة بتأجيل دفع أقساط الديون او تخفيضها احيانا ، على اساس ان يتحمل الاتحاد السوفياتي بشكل أو باخر بعض اعباء التزاماتنا في المعركة ضد الاستعمار ، ومن ناحية كانت مصر تطالب بالكثير، وكان الاتحاد السوفياتي يتصرف وفقا لمـا يراه في اطار قدراته والتزاماته العديدة ، في مناطق كثيرة من العالم·

ومن ناحية اخرى كان هناك بعض اللوم الخفي الذي يوجه للاتحاد السوفياتي على أساس انه لم يستطع ان يمنع الانقلابات الاستعماريـــة ضد عدد من النظم الوطنية في اسيا وافريقيا في اعوام ١٩٦٥ ـ١٩٦٧· وكان يقال لو ان الاتحاد السوفياتي قدم مساعدات اكبر لهــذه البــلاد والانظمة لما استطاع الاستعمار ان يسقطها · والحقيقة ان هذا النقد في غير محله · انه تفسير خارجي للانقلابات · ورغم دور الاستعمار فعلا في تدبيرها ، الا انه يستغل دائما ظروفا داخلية ، واللـــــوم الحقيقي يجب ان يوجه لهذه النظم التي عجزت عن اغلاق الثغرات التي يتسلل منها الاستعمار وعملاؤه في الداخل بالسيطرة التدريجية على المراكز الرئيسية في بلد ما ، والتخريب المتعمد في كل مجالات النشاط القومي، الى ان يتم عزل النظام الوطني وضربه ·

ـ بعد عام ١٩٦٧ نشأ شعور بالمرارة لدى بعض الدوائر في مصر ، علــى أساس ان الاتحاد السوفيتي كان يستطيع ـ ربما ـ ان يفعل اكثر مما فعل لدرء الهزيمة او التقليل من حجمها ؟

قال خالد محيي الدين :

لقد تناثرت اقوال كثيرة بعد الهزيمة ، اغلبها نابع من المشاعر دون ان يرتكز على اسس موضوعية ، خاصة ما قيل عـن ان الاتحاد السوفياتي منعنا من توجيه الضربة الاولى ، وان هذا المنع لعب دورا في هزيمتنا ٠ ورغم انني لا أملك معلومات مؤكدة عن خطط الحـــرب المصرية يومئذ ٠ الا ان معلوماتي نقلا عن السيد زكريا محيي الديـن أن قضية توجيه الضربة الاولى من جانبنا لم تكن مطروحة اصلا ، وأنه لم يكن هناك تفكير في توجيه هذ الضربة ٠ وانما كان الخطأ الاساسي (وهو خطؤنا) هو تحريك القوآت المصرية بشكل يظهرها من الناحيـــة العسكرية امام العدو بأنها غير مستعدة للحرب ٠ ولقد ذكر الخبراء العسكريون الاسرائيليون بعد حرب ١٩٦٧ ان دراستهم لاوضاع القوات المصرية في سيناء اثبتت لهم انها لا تستطيع ان تحارب ٠ وقال الجنرال بيليد الاسرائيلي وهو مسئول الشئون الادارية فيما أظن ان اسرائيـل درست وضع الجيش المصري في سيناء من كل النواحي فوجدت انــه ليس مؤهلا للهجوم او حتى الدفاع !

أما ما يقال عن ان الاتحاد السوفياتي له مصلحة في ألا تنتصر مصر ٠٠ الى اخر هذه الادعاءات ، فهي صادرة عن جهات لا تريد ان تدرك الفارق بين دولة كبرى استعمارية ودولة كبرى اشتراكية ٠ ان أي هزيمة لمصر تؤثر سلبا على الاتحاد السوفياتـــــي ٠ وليس الاتحاد السوفياتي بالسذاجة التي لا يدرك بها هذه الامور عن تفكير واضـح وخبرة مؤكدة فضلا عن مصالحه التي تضار كثيرا مـــن أي انتصار لاسرائيل وللولايات المتحدة في المنطقة ٠ ويحضر لي في هذا الصدد ما ذكره نهرو عندما زار الصين وابدى دهشته من أن يرى للمرة الاولـــى دولة كبرى كالاتحاد السوفياتي تعمل على تصنيع دولة ثانية ضخمـة كالصين دون ان تخشى من منافسة ٠ وكانت هذه احدى نقاط التحول في تفكير نهرو ، اذ يرى نوعا اخر غير مألوف من الدول الكبـــرى ٠ ومن ثم عمل نهرو على ايجاد علاقات قـــوية بين الهنـــد والاتحاد السوفياتي ٠

الاتحاد السوفياتي دولة كبرى ·· نعم ·· !

وهو دولة كبرى لا بد ان تملك من الجيوش والاساطيل ما يحمى وجودها ويؤكده في السياسة الدولية · لكن هذا لا يعني انها تهدف الى ما تهدف اليه الولايات المتحدة الامريكية · هناك خلاف اساسي بين النظامين والدولتين والاسلوبين · فالاتحاد السوفياتي يؤيد حركات التحرر الوطني بينما تبذل الولايات المتحدة قصارى جهدها لضرب حركات التحرر الوطني · والأخيرة تدافع بذلك عن استمرار مصالح استغلالية غير مشروعة ، بينما الاتحاد السوفياتي ليس له مصالح او استثمارات خاصة في هذ المنطقة او في غيرها · والاتحاد السوفياتي يتجنب الصدام المسلح قدر الامكان لان مصالحه الاساسية تكمن في استتباب السلام والتطور السلمي ، بينما يتسم سلوك الولايات المتحدة بالعدوانية تشبثا منها بمصادر الثروات التي تنهبها الاحتكارات الامريكية هنا وهناك ·

– لماذا لا يطبق الاتحاد السوفياتي سياسة هجومية ضد الامبريالية بدلا من اتخاذ موقف الدفاع في احيان كثيرة ؟

قال خالد محيي الدين :

اعتقد ان السبب الرئيسي هو ان الاتحاد السوفياتي يحس بمسئولية خاصة ازاء السلام العالمي ، وفضلا عن ذلك فان الاتحاد السوفياتي لا يتخذ ولا يؤمن بمبدأ الحصول على قواعد عسكرية في الدول الاجنبية ، مما يصعب مهمته عسكريا في الحروب التقليدية · وان كان الاتحاد السوفياتي قد ادرك فيما يبدو اهمية بناء قوة عسكرية تقليدية تتواجد في المياه الدولية وتشكل نوعا من الرادع لقوة الولايات المتحدة · وعموما لا ينطبق مبدأ « الهجوم خير وسيلة للدفاع » بالنسبة لقضايا السلام العالمي والحرب النووية ·

– لكن هذا الموقف يظهر الولايات المتحدة احيانا في صورة الاقوى ، مما يؤثر في معنويات الشعوب المناضلة ضد الاستعمار ؟

قال خالد محيى الدين :

لا اظن ان الاتحاد السوفياتي يجمد عند موقف معين في كل زمان ومكان ، فهناك اولويات تفرض عليه احيانا اتخاذ اجراءات عنيفة ضد التدخل الاستعماري • مثلا اتخذ الاتحاد السوفياتي اجراءات في هذه المنطقة اثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ أقوى من الاجراءات التي اتخذها في فيتنام • لماذا ؟ لانه لو حدثت هزيمة اخرى لمصر كان من المحتمل ان تقع المنطقة كلها فريسة للامبريالية الامريكية • وفي أحداث تشيكوسلوفاكيا وصل الاتحاد السوفياتي الى درجة الاستعداد لمواجهة حرب ذرية ، بسبب خطورة الوضع على حدوده • وفي الاغلب لا يتردد الاتحـــاد السوفياتي في اتخاذ اجراءات مناسبة ما دام هناك شعب يقاتل ، لكن هذا لا يعني ان تتخذ ما تراه مناسبا من اجراءات سلفا ودون التشاور مع الاتحاد السوفياتي عما تطلب ما تشاءه ، اذا كانت الدولة المستقلة ترفض ان يملى عليها احد موقفا ، فالاتحاد السوفياتـــي يرفض بنفس الدرجة على الاقل ان تملى عليه موقفها ، خاصة اذا كان من المحتمل ان يؤدي به هذا الموقف الى حرب نووية عامة ؟ ان حركات التحرر تبدأ معاركها في الظروف التي تراها مناسبة ، وعليها ان تضع في اعتبارها ان مساعدات الاتحاد السوفياتي عامل هام ولكنه ليس مطلقا • انهـا ترتبط بظروف كثيرة جغرافية وسياسية واستراتيجية • أما الصـورة التي يتخيلها البعض بأن الاتحاد السوفياتي يربـض للولايات المتحدة في أي مكان وزمان بحيث ما أن تبدأ الولايات المتحدة في التحرك حتى يضربها على الفور فهي صورة بعيدة عن الواقع •

– لا نعني هذه الصورة ، لكن نقصد اسلوب العمل ؟

قال الاستاذ خالد محيى الدين :

ما اراه هو اسلوب عمل الاتحاد السوفياتيالذي يرتبط بنمو وتطور قوته الاقتصادية والعسكرية • ولذلك فلا يصدر عن الاتحاد السوفياتي تهديد يعجز عن تنفيذه ••• والا ضاعت هيبته دوليا ، ثم يهتم الاتحاد السوفياتي كثيرا بالتحرك من أرضية الشرعية ، اي بعد اتخاذ قرارات

من الامم المتحدة أو بطلب شرعي من الدولة او الحكومة صاحبة الشأن.

وهذا هو موقفه في قضية فلسطين . لقد كان هو صاحب اقتراح عرضها على الامم المتحدة اخيرا ، لكي يكسب تأييدا دوليا معنويا ، يعد عنصرا لا غنى عنه في المعركة .

والاتحاد السوفياتي من جهة اخرى لا يتخذ مواقف متعجلة او مغامرة. لانه يعتقد ان الزمن لصالح ما يؤمن به من مبادىء ولحرصه على السلام. اما الطرف الاخر فهو يدرك ان الزمن في غير صالحه، وانه قياسا على ما يحدث من تقدم في صفوف حركات التحرر الوطني ، لم يعد هناك مفر من ان يخسر نفوذه ومطامعه غير المشروعة .

وتجربة الاتحاد السوفياتي تؤكد انه يكسب بهذا الاسلوب . حتى عندما بدا انه تراجع في كوبا فان كوبا بقيت واحتفظت باستقلالها ونظامها الاشتراكي ، وتمارس دورها في أمريكا اللاتينية . وقد لعبت كوبا ولا تزال تلعب دورا هاما هناك .

اذن فالوقت لصالح ما يدافع عنه الاتحاد السوفياتي ولذلك فهو أكثر حرصا على السلام . ومن هنا لا يصبح من المنطقي ان نتوقع من الاتحاد السوفياتي معنا نفس الموقف الذي تتوقعه اسرائيل من الولايات المتحدة الامريكية . خاصة ان التناقض رئيسي بين حركة التحرر وبين الامبريالية . وان الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي حليف في المعركة ضد الامبريالية .

ـ هل هو مجرد حليف ؟

طبعا لان المعركة هنا اساسا بين الشعب المصري والامبريالية . وهذه مسئولية الشعب المصري في المقام الاول . كما كان الشعب الفيتنامي ولا يزال هو المسئول الاول عن المعركة هناك .

ـ لكن الثورة المصرية أو الفيتنامية جزء من الثورة العالمية ؟

ومن أجل هذا يساعدنا الاتحاد السوفياتي ٠

- هذا يعني انه ليس مجرد حليف ٠٠ انه طرف ايضا ٠٠ أليس كذلك ؟

حليف في المعركة يعني طرف ايضا ٠ أريد ان اقول « والكلام لخالد محيى الدين » أن احد اسباب الخلاف تنبع من فهم هذه المسألة ٠ فعلى ضوء تحديدك لدور الاتحاد السوفياتي تتحدد التزاماته وحقوقه ايضا ٠ ذلك انه لا يمكن ان تطلب منه التزامات قد تصل به الى مواجهة شاملة دون ان يكون له على الاقل حق التشاور والمعرفة المسبقة ليرتب حساباته على هذا الاساس ٠٠الخ ٠

- الا تعتقد ان التزام الاتحاد السوفياتي بالنسبة لحركة التحرر الوطني هو التزام الطرف الاصيل ؟

قال خالد محيى الدين :

هو حليف وهو طرف ٠٠٠ لكنه ليس الطرف الاصيل ٠٠٠ والا ما الفرق بين التزامه هنا والتزامه في تشيكوسلوفاكيا مثلا ؟

لو كان طرفا أصيلا ، اذن فلا تقوم ثورة او حركة تحرر في مكان ما دون ان تطلب موافقته او «اذنه»! ٠٠٠ وهذا شيء غير متصور بالنسبة لحركة التحرر والاتحاد السوفياتي على السواء ٠

ولقد وقعت ثورات في أماكن مختلفة من العالم ولم يستطع الاتحاد السوفياتي بسبب ظروف دولية معقدة ان يساندها ، ومن بينها ثورة كردستان في ايران ، وفشلت الثورة أمام أعين الجميع ٠

هذا هو احد مصادر الخلاف في رأيي ، ومن المهم ايضاحه لكل الاطراف ، فلا يمكن ان نتصور ان الاتحاد السوفياتي مسئول عن كل ما يحدث في العالم ٠ لقد اثار البعض اوضاع غانا وسقوط نكروما على أساس ان الاتحاد السوفياتي كان يستطيع ان يحول دون سقوط نكروما لو قدم مساعدات اكبر الى غانا ٠ لكن لماذا لا يقال ان سياسة نكروما

(دون ان نقلل من قدره) هي التي أدت الى ذلك ؟

ان الخطأ في التحليل يأتي من اعتبار العوامل الخارجية هـــي الاساس · مع ان العوامل الداخلية تأتي في المقدمة دائما ، أيا كانت أهمية العوامل الخارجية ·

ولعل هذه احدى مسائل الصراع الفكري بين الشيوعيين أنفسهم· فالبعض يعتقد ان حركة التحرر الوطني هي العامل الاساسي بيـــن العوامل الثلاثة التي تشمل الحركـــة العمالية العالميـــة والمعسكر الاشتراكي ، والبعض الاخر ـ وان كان لا يرفض ذلك ـ ، لكنه يرى ان قوة النظام الاشتراكي العالمي ونمو قدراته الاقتصادية والعسكرية تأخذ نوعا من الاولوية لانها من العوامل الاكثر تأثيرا في مجرى الصراع ضد المعسكر الامبريالي ·

وهم يستندون في ذلك الى أن تقدم الاتحاد السوفياتي والـــدول الاشتراكية اقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريا ، يجعل قدرتهم على مساعدة حركات التحرر اكثر فعالية ، كما يحد من عدوانية الاستعمار العالـــي ازاء حركات التحرر والدول المستقلة ·

وهم يرون ايضا انه كلما اتيحت الفرصة لتحقيق قدر من الاستقرار الدولي والتعايش السلمي استطاع الاتحاد السوفياتـــي ان يخصص جانبا اكبر للمساهمة في تنمية اقتصـــاد الدول الناميـــة وتطوير صناعاتها ·

ثم هناك مسألة اخرى يجب الا نتجاهلهـــا بالنسبة للاتحاد السوفياتي · فليس من المعقول الا يهتم الاتحاد السوفياتـــي بتحقيق بعض الرفاهية لمواطنيه بعد أن ضحى كثيرا من أجل بنـــاء نفسه ومن أجل مساعدة الشعوب الاخرى · هذا واجب اساسي يلتزم به الاتحاد السوفياتي ازاء شعوبه في الدرجة الاولى · والا اصبح الوضع شاذا اي ان يكون المواطن السوفياتي في مستوى أقل من مواطني الدول التي تحصل على المعونة السوفياتية ··!!

ولذلك فان جزءا هاما من المعركة هو أن يؤكد الاتحاد السوفياتي نجاحه في بناء وتطوير الاشتراكية داخل الاتحاد السوفياتي نفسه · ولعل الازمة العالمية الاقتصادية التي تجتاح العالم الرأسمالي والدول المرتبطة به بشكل او باخر اثبتت بما لا يدع مجالا للشـــك ماذا يعني المجتمع الاشتراكي بالنسبة للناس · ان أحدا في الاتحاد السوفياتـي والدول الاشتراكية لم يحس بأي نوع من التضخم او الارتفاع الجنوني في أسعار السلع · والسبب هو سلامة النظام الاشتراكي أولا ، والجهد المبذول لتدعيمه ، بما يعود على المواطن في الدولة الاشتراكية بثمـار عملـــه ·

والخلاف حول هذه المسألة قديم على اي حال · فعندما قامـت الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، أراد لينين ان يوقع اتفاقا مع الالمان الذين كانوا يحتلون جزءا من الارض الروسية ، فرفض تروتسكي على اساس ان الثورة الاشتراكية توشك ان تقوم في المانيا ومن ثم فلا حاجة للاتفاق مع الاستعمار الالماني · لكن لينين حسم الامر على أساس ان انتظار قيام الثورة الالمانية مسألة المانية داخلية وانه (أي لينين) مسئـــول بالدرجة الاولى عن الثورة الروسية · ولو أن لينين اخذ بوجهة نظـر تروتسكي ولم يوقع ذلك الاتفاق لزحفت الجيوش الالمانية ولكان مصير الثورة الروسية في بدايتها الاولى أصبح في كف القدر !

ان النظام الاشتراكي تجسيد للثورة العالمية وكل نجاح يحـرزه يؤثر ايجابيا في حركة التحرر الوطني ·



ـ يشكو البعض من انهم يحسون احيانا فـــي التعامل مـــع الاتحاد السوفياتي بعض مظاهر الدولة الكبرى ، مما يخلق نوعا من الحساسية بين دولة وطنية تتشبث باستقلالها وبين الاتحاد السوفياتي ؟

قال خالد محيي الدين :

ليس الاتحاد السوفياتي بلا عيوب ، ولعل من هـــذه العيوب أن

تجربته الخاصة تحكم كل تصرفاته في السلم والحرب ، ومن هنا تبدو شقة الخلاف واسعة احيانا ، عندما تصبح تجربته فقط هي المعيار لحكمه على الاخرين · وهذا ما نلاحظه حتى في الاعلام السوفياتي · فالاسلوب الذي يتحدث به الاعلام داخل الاتحاد السوفياتي يتحدث به أيضا الى الخارج ولذلك لا يحقق الاعلام السوفياتي نجاحا ملحوظا في المنطقة العربية مثلا · كما كانت نفس التجربة في حكمه على أسلوبنا في الاستعداد للحرب ·

ومن ناحية اخرى لا يرى الاتحاد السوفياتي بأسا من مسألة التنسيق والتشاور في المواقف بين الاصدقاء والحلفاء ، لكن قد تفسر هذه المسألة من جانبنا بأنها قيد على الاستقلال ، بسبب حساسيتنا الشديدة ·

ولكنني اعتقد ان هذه الحساسية يجب تجاوزها خاصة في أمور الحرب والسلام ، التي تتعلق بمصر والاتحاد السوفياتي معا ، وقد تشمل العالم كله احيانا ·

والاتحاد السوفياتي بالنسبة لنا ليس مجرد مصدر للسلاح ، لكنه كما ذكرنا من قبل صديق مسئول يشارك بقدر استطاعته في كل معاركنا · وهو يتعرض بسبب هذه المشاركة لاحتمالات صدام خطير مع الولايات المتحدة الامريكية · ومن ثم حتى اذا لم يكن يوافق على موقف لنا ، الا أنه لن يتدخل لعرقلتنا من ناحية ، ومن المفيد ان يكون على علم لكي يستعد لمعاونتنا من ناحية أخرى ·

ـ ما هي الصيغة الافضل للتعامل بين مصر والاتحاد السوفياتي ؟

قال خالد محيى الدين :

قبل سفر أحد وفودنا الى موسكو تحدثت الى الدكتور حجازي رئيس الوزراء حول نفس الموضوع ، ان المسألة الاهم ليست الوصول مع الاتحاد السوفياتي من حين لاخر الى اتفاق حول بعض القروض أو

اعادة «جدولة» الدين لتأخير السداد ٠٠ الخ هذه كلها ليست سوى المظهر الخارجي للعلاقة ٠ لكن الاساس هو ان نحدد بدقة ماذا نريد من الاتحاد السوفياتي وماذا يريد هو ٠فاذا توصلنا الى هذا تصبح كل الامور الاخرى ثانوية ويسهل تسويتها ٠

مثلا ٠٠ اذا كانت مصر تريد توازن في علاقاتها الخارجية مع كل الاطراف فلن يعترض الاتحاد السوفياتي ، واذا كانت ترى أنها دولة وطنية تقوم بتغييرات اجتماعية عميقة في المجتمع وترى في الاتحاد السوفياتي حليفا فلن يعترض ايضا ٠ لان الاتحاد السوفياتي يقيم علاقات متنوعة مع كل دولة وفقا لظروفها الخاصة ٠ لكن لا تتوقع ان يضعك الاتحاد السوفياتي في موقف متميز اذا لم تعطه نفس الوضع ٠ وسينطبق هذا بالطبع على كل مجالات التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري ٠ لانه من غير المنطقي ان يكون احد الاطراف في موقف الكاسب دائما وان يكون الاخر هو الخاسر دائما !

لكن هذا لا يعني ان الاتحاد السوفياتي ليس له اخطاء كما ذكرنا آنفا ٠

– هل من بين هذه الاخطاء ان ينظر لمصر احيانا باعتبارها مجرد دولة صغيرة في العالم الثالث ، او يتأثر بما يثار ضده من حملات فلا يرى الخط الاساسي وهو التناقض بيننا وبين الاستعمار العالمي رغم اي خلاف عارض مع الاتحاد السوفياتي !؟

قال خالد محيي الدين :

لم ينظر الاتحاد السوفياتي الى مصر أبدا هذه النظرة ٠ وهو يعرف في كل الظروف أهمية وقيمة مصر كدولة أساسية في هذه المنطقة ٠ لكن لا يمكن ان نتوقع الا يتأثر الاتحاد السوفياتي من الحملات السياسية والاعلامية التي تحاول تقويض دوره وسمعته على نطاق العالم العربي ٠

ومع ذلك فان الاتحاد السوفياتي لم يغير خطــــه الرئيسي في التعاون معنا ورغم كل شيء · والدليل انه لم يوقف اي تعاون اقتصادي وصناعي حتى اثناء الحملات ·

ان تجربتنا مع الاتحاد السوفياتي ومع الاخرين اثبتت وتثبت انه ليس هناك بديل عن قيام وتدعيم علاقات استراتيجية مـــــع الاتحاد السوفياتي ، على كل المستويات · واذا كانت هذه الحقيقة واضحة ، واذا اقتنعنا بأهمية دور الاتحاد السوفياتي في المنطقة فـــي الحرب والسلم فلا بد ان نتصرف على هذا الاساس ، دون ان نركز كثيرا على بعض العوائق التكتيكية او الثانوية ·





محمد عبد السلام الزيات

ـ نداء لينين الى المحاربين ضد الاستعمار الايطالي في ليبيا ٠

ـ البورجوازية المصرية لا تضع عوائق ضد العلاقات ما دامت تكسب منها ٠

ـ أهم نقاط الضعف اقتصار العلاقة على مستوى القمة ٠

ـ مصدر الخلاف تباين التقدير لاهمية المشاكل ٠



محمد عبد السلام الزيات

هذا الرجل الهادىء الهامس شارك في تحمل اكـــــبر الاعباء الادارية والسياسية والتنفيذية ، حتى ناء قلبه بجسامة مسئولياته ٠

ولفرط تواضعه وثقافته فقد تخطىء الحساب وتظن ان كـــل السياسيين والمسئولين في البلاد النامية ليسوا انصاف الهة !

★ ★ ★

فضل الاستاذ محمد عبد السلام الزيات قبل ان يتحدث عن حاضر ومستقبل العلاقات المصرية السوفياتية ان يعود للتاريخ ٠ أو على حد تعبيره « السرد التاريخي المحدود »٠ حتى نستطيع ان نبين بدقة كيف تطورت العلاقات مع الثورة المصرية بعد يوليو عــام ١٩٥٢ ٠ وقال : لقد كانت السياسة السوفياتية بالنسبة للشرق عمــــوما (وللمنطقة العربية كجزء هام منه) أحد الاهتمامات التي مارسها «لينين» شخصيا٠ وفضلا عن ندائه المشهور بعد ثورة اكتوبر «الى شعوب الشرق » ، فهناك نداءاته وتأييده للمحاربين العرب في ليبيا ضد الامبريالية الايطالية ٠ كان التعاطف والتأييد من الثورة الروسية للثورة العـــربية وحركات التحرر يبدو واضحا ودون تحفظ ٠ رغم أن حركة التحرر العربية لــم تكن قد تبلورت تماما بعد ٠ لكن النضال العربي المسلح ضد الامبريالية الايطالية مع بداية انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا ، لـــم يفت القادة السوفيات وعلى رأسهم لينين في ذلك الوقت ٠

انني لا أنقل حرفيا الان عن بيان لينين الى المحاربين العــرب ٠

لكن من بين ما ورد في البيان قول لينين « انكم ايها العرب تحاربون ما يسمى بالمدنية الغربية بجيوشها المتقدمة ··· تحاربونها بالعصى والخناجر ، ومع ذلك تثقون انه سيأتي اليوم الذي ستحاربون فيه من اجل تحرير بلادكم بأرقى الاسلحة · لانكم ابناء مدنية قديمة عريقة » ·

انهم يهتكون اعراضكم ويقتلون اطفالكم وشيوخكم ·· لكنكم غدا سوف تلقنونهم درسا لن ينسى ! » !!

وقال محمد عبد السلام الزيات :

هذا الموقف من الاتحاد السوفياتي وهو صادر من موقع وطني وقومي ، يبدو ايضا فيما قيل او كتب في بعض المراجع ، وفيما ردده بعض المعارضين لتلك الفترة من أن لينين بعث برسالة لسعد زغلول اثناء ثورة ١٩١٩ يؤكد له فيها استعداد السوفيات لمساندة الثورة المصرية ضد الاستعمار البريطاني ·

ـ هل تعتقد ان البورجوازية الوطنية المصرية كانت ترحب بالتعامل مع الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت ؟

قال محمد عبد السلام الزيات :

اذا راجعنا الموقف خلال الحرب العالمية الثانية نجد ان البورجوازية المصرية لم تضع عوائق في سبيل التعامل مع الاتحاد السوفياتي ما دام يحقق لها كسبا اقتصاديا · وفي تلك الفترة من التاريخ المصري كان الاحتلال البريطاني يسيطر تماما على شئون مصر ويستغل كل موارد مصر في المجهود الحربي البريطاني · وكان القطن المصري وهو المحصول الرئيسي والمورد الرئيسي للميزان التجاري ، يصدر الى بريطانيا بالسعر الذي تحدده بريطانيا · لكن في أواخر عام ١٩٤٣ ظهرت حركة بين صفوف البورجوازية المصرية والملاك العقاريين تطالب بتصدير بعض محصول القطن الى الاتحاد السوفياتي ، مستغلين في ذلك الوقت حرج موقف بريطانيا وتحالفها

مع الاتحاد السوفياتي ضد ألمانيا النازية ·

اذن فعندما وجدت البورجوازية الوطنية مصلحتها في التعامل اقتصاديا مع الاتحاد السوفياتي لم تتردد كثيرا · وقد أدى التعامل التجاري المحدود الى ما يقابله من تبادل دبلوماسي على مستوى «قائم بالاعمال» في بداية عام ١٩٤٣ ·

لكن المسألة لم تتعد هذه الحدود ، خاصة من الناحية السياسية· فعندما عرض النقراشي قضية مصر على مجلس الامن عام ١٩٤٧ ، أبدى الاتحاد السوفياتي عن طريق ممثله في ذلك الوقت أندريه جروميكو استعداد بلاده لاي نوع من المساندة والتنسيق اثناء عرض القضية المصرية · لكن الجانب المصري في ذلك الوقت رفض العرض السوفياتي · بل أن النقراشي باشا شن هجوما سياسيا على الاتحاد السوفياتي في خطابه في الامم المتحدة الذي طالب فيه باستقلال مصر، بدلا من ان يركز هجومه على الاستعمار البريطاني الذي يحتل مصر !

هذه هي الصورة بأهم ابعادها بالنسبة للبورجوازية المصرية في ذلك الوقت · فهي تقدم على العلاقات اذا كانت تجني منها فوائد اقتصادية ، لكن عندما تستشعر خطرا على مصالحها من الناحية السياسية في أي صورة من صور العلاقات ، فانها تبادر الى الرفض دون اعتبار حتى للمصالح القومية العليا للوطن كله ·

··· ثم قامت الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ · وبدأت الولايات المتحدة الامريكية تتطلع منذ اليوم الاول لكي ترث نفوذ وسيطرة الاستعمار البريطاني القديم بوسائل اخرى · وحاولت بدأب احتواء الثورة المصرية ، عن طريق الايهام بأن لها دورا في تحقيق اتفاقية الجلاء ، وتطلعت لتلقى الثمن «المناسب» ·

وسرعان ما أسفرت الولايات المتحدة الامريكية عن نوع المشروعات التي اعدتها للثورة المصرية ، سواء منها الاشكال المتعددة ذات المضمون الواحد للاحلاف العسكرية الاستعمارية ، أو مشروع

أيزنهاور لملء ما سمي «بالفراغ» في الشرق الاوسط ٠٠ الخ ٠

ومع هذه المشروعات لوحت الولايات المتحدة الامريكـــية عمليا باسرائيل وشجعتها على انتزاع مزيد من الارض وعلى ارتكاب اكثر من عدوان صارخ ضد الشعب الفلسطيني وضد مصر ٠ وبقـــية القصة معروفة ، وهي رفض تزويدنا بالسلاح وسحب عرض تمويل الســـد العالي بأسلوب يتنافى مع ابسط قواعد الدبلوماسية الدولية ٠ وبدأت العلاقات المصرية السوفياتية بدايتها المنطقية في اعقاب هذه الفترة ، من صفقة السلاح الشهيرة الى اتفاقية السد العالي بعد تأميم قنـــاة السويس ، الى دور الاتحاد السوفياتي العسكري والسياســـي في مساندتنا بلا حدود ، الى اتفاقيات التصنيع لتغيير وجه المجتمـــع والاقتصاد المصري الراكد في ذلك الوقت ٠

ومن المهم هنا ان نذكر ان تبلور مواقف مصرية وطنية واضحة ضد الاستعمار وضد التورط في الاحلاف العسكرية الاجنبية هو الذي لفت نظر قوى التحرر والاشتراكية في العالم الى أن هناك قوة وطنية بازغة ، تحتاج الى مساندة وتأييد ٠

ذلك ان تمرد مصر على الطوق الاستعماري أفشـــل أيضا بعض الخطط الغربية لاكمال حصار الاتحاد السوفياتي عسكريا على حدوده الجنوبية ٠

ولان أي قوة تحررية لا تقف وحدها في مواجهة الاستعمار ،

فقد عرف الاتحاد السوفياتي ومصر الطريق الى علاقة جديدة وثيقة من الصداقة والتحالف من اجل اهداف مشتركة ٠

ـ ما هي نقاط الضعف التي تحيط بالعلاقات المصرية السوفياتية في رايكم؟

قال محمد عبد السلام الزيات :

أهم نقاط الضعف في العلاقات المصرية السوفياتية في رأيـــي

انها قاصرة حتى الان على مستوى القمة . وفي القمة يمكن دائما ان تنشىء علاقات وطيدة وهذا طبيعي ومطلوب بالتأكيد .

لكن في مثل اهمية العلاقات المصرية السوفياتية يجب ان تشمل كل المستويات بنفس مستوى الصراحة والود والعمق .

وما اكثر الوفود المتبادلة رسميا بين البلدين سواء من الاتحاد الاشتراكي والمنظمات النقابية والهيئات الحكومية وما يقابلها من وفود سوفياتية مماثلة ، لكن الزيارات الرسمية شيء والفهم المشترك شيء اخر .

قد لانكون مثلا في حاجة لان نتحدث عن أهمية هـــذه الامـــور بالنسبة لعلاقاتنا مع بريطانيا وفرنسا (رغم الفارق الكبير في نوعية العلاقة) لان هناك روابط ثقافية عميقة الجذور مع هذه البلاد لاسباب تاريخية . ومن هنا فالحاجة اكبر الى وجود روابط ثقـــــافية وفنية واجتماعية مع بلد نقيم معه علاقات استراتيجية على كل المستويات . ولم تسمح لنا الظروف الموضوعية قبل الثورة بأن نعرف عنه او يعرف عنا الكثير .

اننا نعرف ان النظامين المصري والسوفياتي ليسا متطابقين ، لكن هناك أهدافا اساسية مشتركة مثل قضايا التحرر والتقدم الاجتماعي ومحاربة الاستعمار ومناطق النفوذ . وهي تستحق ان نبذل من اجـل تدعيمها وتطويرها جهدا مكثفا .

ان لكل شعب طابعه وخصائصه . وليس من اليسير قيام علاقات وثيقة على المستوى الشعبي في فترة زمنية قصيرة . خاصة ان بعض الفئات المعادية للصداقة المصرية السوفياتية تقيم العراقيل في سبيـل التقارب بين الشعبين ، وان الشعب السوفياتي لم يخرج الـــى العالم الا بعد فترة طويلة من العزلة التي فرضتها الدول الاستعمارية علـى الاتحاد السوفياتي خشية تزايد دوره التحرري والاشتراكي ، مما ترك اثارا معينة تحتاج الى جهد ووقت لازالتها .

وقال الزيات :

انني لا ازعم انني اعرف كل شيء عن الاتحاد السوفياتي رغم انني تعاملت كمسئول مع كثير من القيادات السوفياتية الرسمية ، واتعامل الان من خلال جمعية الصداقة المصرية السوفياتية مع مستويات اخرى شعبية · لكنني الحظ دائما ان السوفيات اناس بسطاء يحبون ارضهم ويتشبثون بها ، ويحترمون السلطة المركزية وغيرها من الطبائع التي تتشابه كثيرا مع طباع شعبنا ·

ولعل رجال الاجتماع في مصر والاتحاد السوفياتي يستطيعون المساهمة بشكل جدي في دراسة هذه الامور والتقريب بين شعبينا وبلدينا ·

ـ يقال احيانا ان السوفياتي ليس «منفتحا» على الاخرين ، وان التعامل معهم رسميا او شعبيا يواجه بحاجز من عدم الثقة والشك من جانبهم ؟

قال محمد عبد السلام الزيات :

لقد تعاملت ـ كما قلت ـ مع كل المستويات السوفياتية ابتداء من الافراد العاديين حتى اكبر المسئولين · واستطيع ان اؤكد بناء على تجربتي الخاصة ان السوفياتي انسان أمين في تعامله ، صريح في مواقفه خاصة عندما يستشعر ثقة من الطرف الاخر ، اما ما يقال في بعض الاوساط عكس ذلك فمرده في الاغلب اما الى عدم معرفة بالجانب السوفياتي او بسبب ما ترسب من دعايات معادية لنا وللسوفيات ·

لقد رأينا بوضوح في كل المناسبات كيف يقدر السوفيات بلادنا وشعبنا وأي قدر من الود الصادق يكنونه لنا ·

لقد كنت في الاتحاد السوفياتي بعد هزيمة ١٩٦٧ ورأيت التمزق والمرارة لدى السوفيات بنفس الدرجة التي احسها المصريون في أعقاب الهزيمة ·

وقد تأكد هـــذا المعنى عمليا بحجـــم المساعدات العسكرية والاقتصادية الذي قدمه الاتحاد السوفياتي دون تردد ، لاعادة تسليح وتنظيم قواتنا المسلحة . لقد كانت هذه القضية بعد هزيمة ١٩٦٧ هي شغل القيادات السوفياتية الشاغل ، وموضع اهتمام وادراك كل المنظمات الحزبية والنقابية داخل المصانع والمزارع وفي كل مجالات النشاط في الاتحاد السوفياتي .

ـ هل نستطيع ان نحدد بدقة ماذا يريد الاتحاد السوفياتي من مصر ؟

قال محمد عبد السلام الزيات :

الاتحاد السوفياتي كما يتضح من مواقفه وارائه لا يريد من مصر الا ان تكون دولة متحررة وتقدمية وفقا لما تعلنه مصر نفسها على لسان قيادتها وفي مواثيقها .

ومصر كدولة متحررة تقدمية هي جزء من الحـــركة التقدمية العالمية ضد الاستعمار والامبريالية ، وهذا جوهر اللقاء بين الاتحاد السوفياتي ومصر .

ـ اذن ما هي نقاط الخلاف بين سياسات مصر والاتحاد السوفياتي ؟

قال محمد عبد السلام الزيات :

اعتقد ان المصدر الرئيسي للخلاف او المشاكل التي تثور احيانا من هنا او هناك هي تقدير كل طرف لدرجة الحاح هذه المسألة او تلك ، فمثلا لو اخذنا مشكلة الاحتلال الصهيوني نجدها ـ وهذا طبيعي ـ تمثل مشكلة اكثر الحاحا لدى الشعب والقيادة المصرية . ورغم ان تصفية العدوان الصهيوني هدف من أهداف السياسة السوفياتية ، لكنها لا تمثل بالضرورة نفس درجة الالحاح في ترتيب الاولويـــات بالنسبة للشعب والقيادة السوفياتية ، فالاتحاد السوفياتي لديه مشاكل اخرى كثيرة والتزامات قومية وعالمية واشتراكية متعددة مما قد تجعل لهذه

المشكلة او تلك أسبقية على مشكلتنا في وقت معين على الاقل ·

ثم هناك خطوط او قنـــوات الاتصال بين مصـــــر والاتحاد السوفياتي · وقد يحدث احيانا الا تكون وسائل الاتصال « البشرية » على نفس المستوى الدقيق الذي يتعامل به القادة في البلدين ، مما يترك مجالا للتحريف او التشويه ويسبب مشاكل متعددة · ولست أقصد ان يكون مسئولو الاتصال (من جانبنا خاصة) مـــن ذوي اتجاهات فكرية محددة · فهناك فئات عديدة دون اتجاه فكري محدد تحرص علـــــى استمرار الصداقة المصرية السوفياتية التي تتلاءم مع مصالح الوطــن بشكل عام والمصالح المشروعة لهذه الفئات نفسها ·

وهناك أيضا احدى المشاكل التي تبدو أساسية في أغلب الاحيان· وهي مشكلة التسليح · فنحن من ناحية نتطلع الى الحصول على اكبر واحدث قدر من الاسلحة بسبب ظروفنا الخاصة ، والاتحاد السوفياتي يستجيب ولكن بدرجات متفاوتة · وأنا لا اعرف كــــــل تفاصيل هذه الامور ، لكن من المؤكد انه يمدنا بكميات كبيرة من الاسلحـــة المتقدمة التي كان لها أثر بارز في حرب أكتوبر · وثمة عقيـــــدة معينة لدى السوفيات قد تكون من اسباب الخلاف في هذا الصدد ، وهي أنهم كما يقولون يريدون ان يتم استيعاب اي سلاح متقدم بشكل كامل قبل ان نطلب سلاحا اخر ·

ويحضرني في هذه المناسبة كلمة الرئيس الراحل عبد الناصر عندما حرص على حضور اجتماع لنا لتنظيم عملية الاستعداد لزيـارة خروشوف في ذلك الوقت · لقد سألته يومئذ عن سر اهتمامه بحضور اجتماع لجنة الاعداد والتنظيم فأجاب : انني اريد ان نحقق اكبر قدر من التفاهم مع الشعب السوفياتي · اننا نختلف عنهم بالقطع لكن يجب ان يوضح كل منا للاخر وجهات نظره دون مواربة وبدون أي حساسية·

ونحن من جانبنا تجاوزنا مرحلة العلاقات الرسمية مع الاتحاد السوفياتي · لم تعد العلاقات مجرد تزويدنا بالســلاح او بالمصانع · اننا رفاق مصير واحد ، ومن المهم ان نحاصر اي مشكلة في بدايتها حتى لا تشكل عقبة كبرى مع الزمن في طريق أهدافنا المشتركة ·

حافظ اسماعيل

ـ صفقة الاسلحة ادت الى تعديلات هامة فــي الفكر العسكري المصري وأحدثت تطورات جوهرية في القوات المسلحة ٠

ـ الجهود المصرية السوفياتية الجبارة بعد ١٩٦٧ كانت نقطــة الانطلاق لحرب اكتوبر ١٩٧٣ ٠

ـ لولا وجود الاتحاد السوفياتي لاستطاع الغرب ان ينهي مشاكله بالطريقة التي تلائمه في الشرق الاوسط ٠

ـ لسنا متعمقين فـــي دراسة الاتحاد السوفياتـــــــي ، والاتحاد السوفياتي ايضا لا يفهمنا بالقدر الكافي ٠

ـ الاتحاد السوفياتي هو المظلة التي غطت عملياتنا العسكريــة والاقتصادية ضد اسرائيل واحتكارات البترول ٠



حافظ اسماعيل

··· لا يزال يمارس أفضل التقاليد العسكرية فـــــــي حياته السياسية والدبلوماسية : الانضباط الشديد والاستقامة والكتمان · وهو يبدو دائما كمن يتردد في أن يقول شيئا ، بسبب اصراره على اختيار اللفظ المحـــــدد للمعنى المحدد · كان من أكفأ ضباط القيادة العسكرية المصرية · وهو اليوم مـــن أبرز الدبلوماسيين ·

وبسبب عزوفه عن الاحاديث العامة فربما كان هذا هو الحديث الثانـــي له منذ ان انتقل من الحرب الى السياسة ··· وحتى الان ·

قلنا له : كيف وجدت السوفيات وانت أول مسئول يذهب للتفاوض معهـم حول تنفيذ الصفقة الشهيرة التي هزت العالم ، بعد ان وافقوا علـــــى تسليح الجيش المصري ؟



قال حافظ اسماعيل :

بدأت العلاقة مع الاتحاد السوفياتي ــ بالنسبة لي شخصيا ــ في أغسطس عام ١٩٥٥ ، عندما كلفت برئاسة وفد عسكري محدود العدد والسفر الى تشيكوسلوفاكيا لابرام أول صفقة اسلحة مـــــع الدول الاشتراكية ، أو أساسا مع تشيكوسلوفاكيا بالاتفاق مـــــع الاتحاد السوفياتي ، ومع بولندا في بعض اجزاء الصفقة ·

ولقد ابرمنا الاتفاق في أوائل سبتمبر بعد مفاوضات استغرقت ما بين اسبوعين وثلاثـــــة أسابيع · ووافـــــق الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا على تقديم كل الاحتياجات العسكرية المصرية كمـــا

قدرتها القيادة العامة للقوات المصرية في ذلك الوقت • وبعـــد أن تم التوقيع على الاتفاقية اعلن عنها الرئيس الراحل عبد الناصر في الثاني من سبتمبر سنة ١٩٥٥ •

ـ كيف كان تعاملكم للمرة الاولى سياسيا وعسكريا مع السوفيات بعد عزلة طويلة بين البلدين فرضها النظام الملكي والاستعمار البريطاني ؟

قال حافظ اسماعيل :

كانت مهمتي عسكرية فقط • أما الجانب السياسي فقـــد تم في القاهرة قبل ان نذهب الى براغ • وكل ما أعرفه هــو انني استدعيت كمدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر في ذلك الوقت ، وكلفت برئاسة الوفد العسكري لاجراء مفاوضات حول احتياجـــات القوات المسلحة وتوقيع الاتفاقية ، وقد سافرنا من القاهرة سرا الــى يوغسلافيا حيث أمضيا في بلغراد يومين امعانا في التمويه ومن هنـــاك وصلنا الــى براغ •

وقد أجرينا المفاوضات حول الصفقة في وزارة التجارة الخارجية وان غلب على المفاوضين العنصر العسكري ، كما كـــان بينهم ايضا شخصيات سوفياتية •

••• في البداية كانت لديهم مخاوف من أن يكون موقفنا مجرد مناورة ، لكن عندما تأكدوا من صدق نوايانا أصبح التعامل ميســـرا ودون ابطاء •

ولقد وقعنا الاتفاقية بعد مفاوضات تمت في يسر شديد واستغرقت حوالي ٢٠ يوما حول صفقة تقدر قيمتها ببضع عشرات مـــن ملايين الجنيهات، وتضمنت التسليح الاساسي للجيش والطيران •

المشكلة الوحيدة التي واجهتنا هي ان مفاهيمنا في ذلك الوقت كانت أقرب الى النظرية الغربية في التسليح فـــي مواجهة الفكـــر العسكري السوفياتي الذي يختلف عنها •

لكننا تجاوزنا هذه العقبة دون صعوبة تذكر ·

وقد يكون من المناسب ان نتوقف قليلا عند هذه الصفقة الشهيرة، فلم تكن مجرد صفقة بقدر ما كانت بداية مرحلة طويلة من التعاون مع الاتحاد السوفياتي في مجال التسليح · وقد عقدنا بعدها مباشرة صفقة أخرى في أوائل ١٩٥٦ لاكمال ما يلزمنا ، كما عقدنا صفقة أخرى مع بولندا تتعلق بالقوات البحرية · وفيما بين خريف عام ١٩٥٥ وربيع ١٩٥٦ تم وضع كل الاحتياجات في صورتها الموسعة الكاملة · وبهذه المناسبة كان من بين اشتراطاتنا هو أن يتم نقل الاسلحة الينا على سفن سوفياتية ، وان يتم توريد بعض الطائرات على الفور · واستجاب الاتحاد السوفياتي لما طلبناه دون تردد ·

نعود مرة اخرى الى المسألة المهمة في العلاقات العسكرية المصرية السوفياتية · لم تكن كما قلت مجرد صفقة أو عملية شراء سلاح · وكان الدافع الى هذا التطور هو العدوان الثلاثي ·

ـ ماذا تعني بهذا التطور وعلاقته بالعدوان الثلاثي ؟

بعد انسحاب القوات الانجليزية والفرنسية في اوائل عام ١٩٥٧ (ولم تكن القوات الاسرائيلية قد انسحبت بعد من سيناء) بدأت في القيادة العامة للقوات المصرية المسلحة عملية اعادة تقييم الموقف · وتبلور لدينا الاحساس بأن السياسة الخارجية المصرية دخلت افاقا جديدة أوسع نطاقا من المفاهيم المحدودة لما قبل الاستقلال وانسحاب القوات البريطانية · وأدركنا ان التحديات التي تواجه مصر ستصل الى ما هو ابعد مما حدث في خريف ١٩٥٦ ، ولذلك فان الموقف يقتضي منا اعادة النظر في كل هيكل القوات المصرية المسلحة ·

وهذا ما حدث بالفعل · ففي الفترة ما بين أوائل عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٦٠ (عندما تركت القوات المسلحة) كانت القوات المسلحة كلها قد دخلت في مرحلة من أكبر مراحل التطوير بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا · وتضمن هذا التطور اعادة تنظيم القيادة العامة تنظيما شاملا بحيث تستطيع القيادة الموحدة ان تقوم ، ليس فقط

بعمليات التخطيط والتنظيم والتدرب اثناء السلم ولكن ان يكون لهـــا أيضا القدرة على السيطرة على القوات المسلحة بكل فروعها ، وهو ما لم يكن متوفرا قبل عام ١٩٥٦ ٠

وكان الشق الثاني لعملية التطوير الشامل هـــو اعادة تنظيم القوات المقاتلة برا وجوا وبحرا ٠ وقد تم احداث تطورات جوهرية فيها جعلتها اكثر قدرة في ميادين القتال ٠

وقد تطلب هذا كله تعديلات في الفكر العسكري وفي طريقة تناول الاسلحة والقوات بصورتها الجديدة ، مما أدى الى ادخال تغيير واسع النطاق في هيكل الجهاز التعليمي في الجيش ، وبالتالي أعيـــد تنظيم المدارس والمعاهد والكليات العسكرية ، كما أعيدت صياغة كل ما يتعلق باستخدام القوات العسكرية على المستوى التكنيكي والمستويات الارفع٠

ولك ان تتصور أهمية وصعوبة هذه العملية الطويلة المدى لكـي تغير مفهوم الفكر التكنيكي وفقا للمتطلبات الحديثة فـــي جيش ارتبط باستخدام الاسلوب البريطاني لعشرات السنين ٠

وفي النهاية نجحنا في اقامة القاعدة الفنية للقـــوات المسلحة بالاشتراك مع تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٠ ، وهي ايضا من الامور التي تعتز بها القوات المسلحة اليوم ٠

ـ ماذا تعني بالقاعدة الفنية للقوات المسلحة ؟

ـ أعني القاعدة الواسعة مـــــن ورش ومؤسسات «الاصلاح» والصيانة التي تتجاوز في حقيقتها وفي مهامها مجرد الاصلاح والصيانة لانها اقرب الى الانتاج والتصنيع ، كما أنها تعزز قاعدة انتاج الذخائر أيضا ٠ كما أنها تشمل أيضا ما وصلنا اليه عام ١٩٦٠ مـــن انشاء أكاديمية ناصر ٠ وقد تم بشكل عام في السنوات الاربع من عام ١٩٥٧ الى عام ١٩٦٠ وضع اساس جديد تماما لشكـــل وقيادة واسلـــوب استخدام القوات المسلحة ٠ لكن ما تم رغم أهميته وضخامته كان أقل

مما حدث بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي ايضا بعد هزيمة ١٩٦٧ · ففي ذلك الوقت كان يعاد تشكيل وتنظيم القوات المسلحة تحت ظروف المعركة ثم اجتازت القوات المسلحة عمليات حرب الاستنزاف ، التي كانت بمثابة صهر للقوات في المرحلة الاولى لوضع التنظيم الجديد تحت الاختبار في مجال التعاون بين الاسلحة المختلفة والعمل أو الفعل ورد الفعل · ورغم انني كنت بعيدا عن القوات المسلحة في تلك الفترة لكنني أستطيع أن أقدر قيمة الجهود الجبارة المشتركة المصرية السوفياتية التي بذلت للتخطيط والتشكيل والتنظيم ، والتي تعد نقطة الانطلاق لحرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ·

ـ هل تعتقد انه كان من الممكن لاي دولة ان تسلحنا وفقا لما يقال احيانا ان سوق السلاح مفتوح لمن يدفع رغم الظروف السياسية المتقلبة ؟

ـ نعم كان من الممكن ··· بشرط ان تضمن الدول الغربية مجتمعة وبالتنسيق فيما بينها ما تسميه بالتوازن بيننا وبين اسرائيل ، أي بين اسرائيل من ناحية وبين كل الدول العربية من جانب اخر · وهذا ما رفضته مصر في اوائل عام ١٩٥٥ ، واتخذت بعد ذلك قرار الحصول على التسليح من الاتحاد السوفياتي ·

ثم اضاف حافظ اسماعيل مكملا :

انني لا اتصور ان مسألة التسليح مسألة تجارية · انها تتصل أساسا بالاعتبارات السياسية · ولعل موقف مصر من رفض دخول الاحلاف العسكرية الاجنبية عام ١٩٥٥ ، بالاضافة الى احساس مصر أن تسليحها مقيد بمبدأ التوازن مع اسرائيل هي الاسباب التي تدفع الغرب أن يعطي مصر بقدر ·

وبما أن مصر كانت لها سياسات تتجاوز هذه «الحدود» لذلك كان لا بد ان تخرج عن هذا الاطار ·

ـ «يقولون» ان الاتحاد السوفياتي يبيع لنا السلاح على أساس الاسعار العالمية ... ويتردد كثيرا لدى المصادر الغربية أن القطن المصري يقدم مقابل صفقات السلاح ؟

قال حافظ اسماعيل :

ـ أستطيع القول بخبرتي الشخصية ان ما تم من صفقات في عامي ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ كانت أسعاره تقل كثيرا جدا عن الاسعار التي كانت تشترى بها مصر من دول غربية . بل انها اسعار لا يمكن مقارنتها بالاسعار الغربية .

أما ان الاتحاد السوفياتي يتقاضى ثمن السلاح فهذا طبيعي . وهل الغرب يبيع الاسلحة مجانا ؟ أليست الاسلحة من أغلى السلع واكثرها تكلفة وتعقيدا !؟

ـ اذا تجاوزنا الجانب العسكري في العلاقة الى السياسة فماذا ترى لتجنب الازمات من حين لاخر في العلاقات السياسية بين مصر والاتحاد السوفياتي ؟

ـ المسألة الاساسية في اعتقادي هي ضرورة وجود فهم اكبر من كل جانب للجانب الاخر . ان علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي لا تتجاوز عشرين عاما . واعني بها العلاقة المباشرة التي تكاد ان تكون يومية . ولا شك انه بالمقارنة لعلاقاتنا بدول أخرى تعد العلاقة مع الاتحاد السوفياتي جديدة او ناشئة .

لكن يخيل الى أن الخطأ الاكبر ينبع من عدم تغيير الفهم المتبادل سواء من جانبنا او من جانب الاتحاد السوفياتي ، فالاتحاد السوفياتي مثلا ظل فترة طويلة منعزلا عن العالم العربي . والعالم العربي له اسلوبه وتقاليده وعقليته الخاصة التي تختلف عن أسلوب الحياة في الاتحاد السوفياتي ، ولا يمكن تطبيق المعايير الاوروبية على العالم العربي اذا لا تزال النواحي العاطفية تلعب دورا كبيرا لدينا ،

وليس كل شيء يؤخذ من زاوية عقلانية • ونحن من جانبنا أيضا لسنا متعمقين في دراستنا للاتحاد السوفياتي كقوة كبرى سنتعامـــــل معها لعشرات السنين • انني اشك ان يكون لدينا في مصر الكثيرون الذين يعرفون الكثير عن الاتحاد السوفياتي ، والثورة الروسيـــة ، والمجتمع السوفياتي والاهداف السوفياتية بالقدر الذي يمكننا من تنظيم علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي بطريقة أفضل • ويحضرني هنا بعــض الامثلة البسيطة والمعبرة في نفس الوقت • فبعد عشرين سنة من التعامل مــع الاتحاد السوفياتي لا نزال عاجزين عن معرفة حتى الطريقة التي يمكن بها التعاقد على شراء ورق من الاتحاد السوفياتي !! ، ويتصور البعض أنهم يمكن ان يصلوا الى موسكو ويعلنون عن رغبتهم في الحصول على عشرة الاف طن من الورق • فاذا لم يستجب الاتحاد السوفياتي علــى الفور فلا بد ان هناك موقفا غير ودي ••• وتنشب أزمـــة •••! أليس الاتحاد السوفياتي دولة مصدرة للورق ؟ وهل يعجز عـــن تلبية طلب «بسيط» كهذا !! ••• وهكذا تتعقد الامور أحيانا بسبب عــدم الدراية بأسلوب الاتحاد السوفياتي في الانتاج والتخطيط والبيع والشراء ••!

وحتى من خلال التجارب مع الاتحاد السوفياتي لـــم نستطع أن نفهمه ونفهم القيود المادية التي يتعرض لهـــا • لقد دخـــل الاتحاد السوفياتي الحرب العالمية الثانية وفقد ٢٠ مليون مواطن • وخرج من الحرب ليبني نفسه ويساعد في بناء دول اشتراكية معه • وفـــي نفس الوقت يحاول التصدي لتحديات الولايات المتحدة الامريكية ويبني قوة عسكرية على نفس المستوى ، وذلك رغم أنه لا يملك نفس موارد أمريكا وأوروبا الغربية •

نحن نظلم الاتحاد السوفياتي عندما نتصور انه قادر على كـــل شيء ، هل نسينا ان الولايات المتحدة الامريكية التي تملك ضعف موارد الاتحاد السوفياتي تشكو بعد حرب اكتوبر من أن طلبات اسرائيل هبطت بما لدى الولايات المتحدة من احتياطي استراتيجي الى ما دون مستوى الامن ؟

بالتأكيد حدث نفس الشيء بالنسبة للاتحاد السوفياتي لكنــه لا

يعلن عن ذلك ولا يتحدث في هذه الأمور ٠

اذن هناك ضرورة لفهم أفضل ٠

لقد تحدثت مع بعض الصحفيين المصريين الذين حضروا الى هنا (جرى الحديث مع السيد حافظ اسماعيل في موسكو) في مناسبة ما فأبدوا دهشتهم ان موسكو مدينة عصرية بهذه الصورة !! كانوا يتصورون ان موسكو ضاحية ريفية او قرية كبيرة (مثل طنطا مثلا!!) ٠

ثم لا ننسى الدعايات الغربية المكثفة ضد الاتحاد السوفياتي وما تركته علينا من اثار طوال سنوات ما قبل عام ١٩٥٥ ٠ ان بعض رواسب هذه الدعايات لا تزال موجودة بصرف النظر عن العلاقات المتطورة بيننا وبين الاتحاد السوفياتي ٠

ولهذا أكرر مرة أخرى انني ادعو الى قدر اكبر من الفهم المتبادل٠ واعتقد ان هذه مهمة التسويات المسئولة ٠ ان رجل الشارع لن يبحث كثيرا لكي يتخذ موقفا ما ، لكنه يتأثر بما يقرأ ويسمع ٠ ومن هنا يجب أن نضع في الاعتبار ان علاقات الدول تقوم على مصالح مشتركة ٠ فاذا رفضنا هذا المبدأ فنحن نرفض العلاقة أصلا ، ليس فقط مع الاتحاد السوفياتي بل مع أي دولة أخرى في الشرق او الغرب ٠

- هل يمكن أن نحدد طبيعة المصالح التي تدفع الاتحاد السوفياتي لاقامة علاقات مع مصر ؟

قال حافظ اسماعيل :

يحدد الاتحاد السوفياتي مصالحه كما اعتقد فيما يلي :

منطقة الشرق الادنى كما تسمى (هنا في موسكو) تقع على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفياتي ٠ وبالتالي فهي حيوية من وجهة نظر أمنه وسلامته ٠ ويهتم بكل ما يجري فيها ويقول المسئولون هنا في موسكو أن ما يستهدفونه هو ان تكون المنطقة مستقلة سياسيا واقتصاديا وبذلك يضمنون تأمين حدودهم الجنوبية ٠

ويضيف حافظ اسماعيل :

انني أرى ان هذا هدف ومصلحة مشروعتين · ان دولة كبرى في صراع مع قوى اخرى ضخمة ، تريد ان تؤكد او تتأكد ان المناطق المحيطة بها مستقلة عن النفوذ الاجنبي ، لان هذا من دواعي استتباب أمنها ·

ولما كانت مصر تمثل مركز الثقل في هذه المنطقة جغرافيا وبشريا وحضاريا واقتصاديا فهي اذن نقطة جذب · وبالتالي فان الاهتمام المباشر بمصر له ما يبرره ·

- هل تحددون اذن طبيعة المصالح التي تدفع مصر الى اقامة علاقة مصرية سوفياتية بهذا الحجم والنوع ؟

قال حافظ اسماعيل :

دعنا من الكلام المجرد · انني أفضل ان اتكلم عمليا ولنبدأ من اليوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٧٤ ··

- هذا اكثر دقة!

- بل لنقل هذا اكثر «برجماتية» !

ان المشكلة تتلخص الان في انه ابتداء من حرب اكتوبر دخل العالم العربي كله (شاء أو أبى) في مرحلة نضالية طويلة المدى مع القوى الغربية · وأصبحت المشكلة العربية الاسرائيلية التي كانت تبدو محدودة تشمل كل منطقة المشرق العربي وجنوب الجزيرة العربية · وأصبحنا امام موقف أراه قريب الشبه بالموقف في ١٩٥٦ لكن بصورة اكثر حدة واتساعا وتصاعدا · لانه اذا كانت مصر قد أممت قناة السويس عام ١٩٥٦ ، فان العالم العربي أمم البترول تقريبا عام ١٩٧٣

او استعاد السيطرة على موارده ، وحدد اسعاره واتخذ مواقف قومية لمصلحته ، ترى فيها بعض القوى الاخرى «تهديدا» لامنها ومصالحها ·

فاذا اضفنا الى ذلك الصراع العربي الاسرائيلي نفسه أدركنا مغزى تصريح الرئيس فورد ، الذي ذكر أخيرا ان الموقف في الشرق الاوسط خطير ، وان نشوب حرب خامسة بين العرب واسرائيل قد يؤثر في مشكلة الطاقة وحظر البترول وقد يؤدي بالتالي الى مواجهة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية ·

العالم العربي اذن في مرحلة صراع مع قوة ضخمة بكل احتمالات الصدام العسكري معها · فاذا كان قادرا بمفرده على مواجهة هذه التحديات فأهلا وسهلا · لكنني اعتقد على وجه التأكيد ان العالم العربي في حاجة الى التأييد بصوره المختلفة ، من جانب كل القوى الحريصة على استقلال الشعوب وحريتها وأمنها ·

وفي اعتقادي انه لولا وجود الاتحاد السوفياتي بثقله السياسي في المنطقة لكان الغرب قد انتهى من مشاكل الشرق الاوسط بالطريقة التي تلائمه منذ شهور ان لم يكن منذ سنين · وحتى الوجود غير المستقر تماما للاتحاد السوفياتي في المنطقة كان بمثابة المظلة (سواء تنبهنا الى ذلك او لم نتنبه) التي غطت كل العمليات ، سواء التي قمنا بها ضد العدوان الاسرائيلي عسكريا او لاستعادة السيطرة على موارد البترول ·

ومن هذه الزاوية ابدأ (على خلاف الذين يتحدثون ابتداء من الموقف النظري)ماذا تريد مصر في المرحلة المقبلة؟ وما هي الدول المؤهلة لكي تساعدها وما هي الادوار التي تستطيع ان تلعبها ؟

ان المشكلة التي تواجهنا كمهام وطنية في المرحلة المباشرة هي تحقيق الانسحاب الاسرائيلي الكامل من أراضينا المحتلة وتأمين حقوق الشعب الفلسطيني وتحقيق السلام · أما التنمية الاقتصادية فهي مهمة لا خلاف حول اهميتها ايضا · ومن هنا نستطيع ان نتبين بصدق الدور

الذي يستطيع ان يلعبه الاتحاد السوفياتي في تحقيق الاماني المصرية العربية ٠

واذا تعرضنا لمسألة التسوية النهائية مع اسرائيل ، ففي نهاية المطاف وبعد استنفاذ كل ما نحققه على كل الجبهات (كما جاء في البيان المشترك المصري السوفياتي بعد زيارة اسماعيل فهمي) فان التسوية النهائية ستتم حتما في مؤتمر جنيف وليس خارجه ٠ لماذا ؟

لانه في تقدير الجميع لا تستطيع الولايات المتحدة ان تحقق بمفردها التسوية النهائية في المنطقة لاعتبارات مختلفة ٠ ومن هذه الاعتبارات ان الاتحاد السوفياتي احد الاطراف المشاركة في المسئولية طبقا لقرار مجلس الامن حول التنفيذ الفوري للقرار رقم ٢٤٢ بوصفه قوة كبرى ومكلف من مجلس الامن مع الولايات المتحدة الامريكية بحل النزاع العربي الاسرائيلي اي انه من المطلوب وجود الاتحاد السوفياتي في اطار الجهود المبذولة لهذا الغرض وهي مؤتمر جنيف ٠

ولكنني أحب ان صور الامور بشكل واقعي ودون ان يعني ذلك اي تشاؤم ٠ ان التجربة الفيتنامية تحتل في ذهني مكانا بارزا ، وأعتقد ايضا ان اسرائيل تعمل في اطار نفس التجربة ٠ وعندما نسترجع هذه التجربة نجد ان مباحثات باريس بدأت في ربيع سنة ١٩٦٨ بعد الهجوم الفيتنامي في «تيت» (أو رأس السنة الفيتنامية) وانتهت بهجوم الولايات المتحدة على فيتنام ـ الديمقراطية في خريف سنة ١٩٧٢ وقد بدأ مؤتمر جنيف بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ومن المحتمل الا تنتهي المباحثات قبل وقوع معركة اخرى تزيل العقبات الاخيرة قبل التسوية النهائية ٠

وعلاقة هذا الكلام بالاتحاد السوفياتي (بصرف النظر عن حقنا في تنويع مصادر أسلحتنا) هي أن الاتحاد السوفياتي ما يزال وسيظل لفترة طويلة هو المصدر الاساسي لتسليح قواتنا ٠ ولذلك ففي الفترة القادمة (ولا أدري اذا كانت ستستغرق عاما أو خمسة أعوام) والى ان نجتاز النقطة الحرجة ، وهي النقطة التي ستقبل فيها اسرائيل بالانسحاب الكامل وبالتسليم بحقوق شعب فلسطين ، فاننا سنحتاج

لكثير من الدعم للقوات المسلحة ، الامر الذي يرتبط اساسا بالاتحاد السوفياتي ·

أما الجانب الاخر في العلاقة فهو الجانب الاقتصادي والفني ·· لقد بنى الاتحاد السوفياتي قاعدة او جزءا من قاعدة الصناعة في مصر· والمسألة التي أريد اثارتها هي أن استقرار مصر الاقتصادي في المرحلة القادمة يتوقف الى حد كبير على استعداد الاتحاد السوفياتي للاسهام في تنمية الاقتصاد المصري بصورة مختلفة ·

وقد تبدو مسألة الاستقرار الاقتصادي للبعض كمجرد وسيلة لرفع مستوى المعيشة وما شابه ذلك · لكنني لا أعني هذا فقط · انني أشير الى أهمية الاستقرار الاقتصادي (والسياسي طبعا) كمنطلق صحيح للاقدام على أي محادثات سياسية خارجية هامة · وليست هناك دولة تقدم على محادثات خطيرة في الخارج دون ان تضمن أولا استقرارها الداخلي ·

وهنا أيضا يستطيع الاتحاد السوفياتي ان يسهم في هذا الاستقرار لكي لا تكون مصر في حاجة الى النظر الى الخلف وهي مقدمة على أمور مصيرية في المدى المباشر ·

وعلى المدى الاطول فان استكمال بناء القاعدة الاقتصادية القوية في مصر مسألة حتمية ، ولا يمكن حسب ما أعرف ان تتحقق من أي مصادر أخرى غير الاتحاد السوفياتي · وذلك ليس فقط ــ كما قلت ــ من أجل الرخاء وحده ولكن من اجل ضمان اهم عناصر المواجهة المستمرة عسكريا وسياسيا مع أي قوة عدوانية في المنطقة او حولها ·

وليس في ذلك اي غرابة ، خاصة ان هناك اجماعا على ان القطاع العام في مصر والجهود الاقتصادية للتنمية هي التي مكنت الشعب المصري من الصمود فيما بين عامي ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ كما قلنا اكثر من مرة ·

وعلى أي حال فان تدعيم الاتحاد السوفياتي للقاعدة الاقتصادية

والفنية والعملية المصرية يخدم أهداف ما بعد السلام ايضا ، بل ومن أجل ان تعطى مرحلة السلام ثمارها المرجوة ٠

- يعتقد البعض ان العلاقات المصرية السوفياتية مرهونة بحل أو عدم حل مشكلة الشرق الاوسط والنزاع العربي الاسرائيلي ؟

قال حافظ اسماعيل :

هذا غير صحيح ٠ وعلى العكس ان تحقيق السلام سيزيد من العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، ولا يمكن ان يقيم الاتحاد السوفياتي علاقاته بالمنطقة على أساس وجود او عدم وجود اسرائيل ٠ لقد نشأت العلاقة المصرية السوفياتية لاسباب مباشرة ، وكان من الطبيعي - حتى بدون وجود اسرائيلي - ان تنفتح مصر على العالم الاشتراكي ، كما هي منفتحة على الغرب ، خاصة وان العالم الاشتراكي قريب جدا منا ويملك قدرات اقتصادية وفنية ، نحن في حاجة اليها ٠

ان اهدافنا ليست مجرد تصفية للعدوان الاسرائيلي وتحرير الارض ، فنحن نتصور (كما قلت اثناء الجولة التي قمت بها قبل فترة قصيرة من حرب اكتوبر في أمريكا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الغربية) نحن نتصور المنطقة ذات دول مستقلة وقوية ومتطورة ، تنمو متعاونة وبذلك تستطيع في مجموعها ان تكون شريكا ايجابيا في تحقيق رخاء وسلام العالم ٠ ولقد حذرنا من أن ترك منطقة الشرق الاوسط ، لليأس والقنوط لن يسمم المنطقة وحدها ، ولكن جسم المجتمع الدولي كله ٠ وقد ذكرت لقادة العالم الغربي ان العالم العربي يريد ان يكون شريكا على قدم المساواة مع جميع الاطراف ، لانه لا يستطيع احد ان يتصور استقطاب الشرق الاوسط كمجموعة في علاقته بالقوى الكبرى ٠ وان كنا نخالف البعض رأيهم حول مسئوليتنا عن هذا الاستقطاب ، ان كان قد حدث في فترة او أخرى ، لم نكن مسئولين عن ذلك ٠ وكان رأينا دائما الا تخرج المنطقة عن اطار عدم الانحياز ٠ (بمعنى الا تنضم لاي حلف عسكري تابع لمعسكر من المعسكرات سواء كان الاطلنطي او وارسو) ٠ لكن المشكلة ان الولايات المتحدة الامريكية لا تقبل مفهومنا

هذا • ولو أنها قبلته فربما لم تكن لتقوم الحرب أصلا • ولعل الرد الامريكي الذي سمعناه اثناء الجولة التي قمت بها من ان « التصور المصري لا يساعدها على ان تلعب دورا تجاه التسوية » كان أحد النقاط الحاسمة في قرار الرئيس السادات بدخول الحرب • المشكلة هي أن «الاستقلال» في المفهوم الامريكي ليس هو ما نتصوره نحن عن الوضع المستقل المتعاون مع جميع الاطراف في ظروف السلم •

ـ هل تتعارض فكرة او تصور الاتحاد السوفياتي لمصر المستقلة الوطنية التي تتمتع بالرخاء مع مفهومنا عن هذه الامور ؟

ـ ان الامر يرجع لنا في النهاية • ونحن الذين نقرره ، ويتوقف على ارادتنا واستقرارنا وثباتنا •

ـ في حالة تطور العلاقات المصرية السوفياتية الى أوسع مدى ممكن ، هل ترى في ذلك اي قيد على حركة وحرية مصر ؟

قال حافظ اسماعيل : السؤال ناقص •••

ـ اذن نكمله !

ـ لا أقصد بهذا المعنى • اريد ان اقول ان مطالب مصر في المرحلة الطويلة القادمة قد لا يمكن اشباعها من طرف واحد • الاتحاد السوفياتي دولة كبرى ، لها علاقات واسعة مع العديد من دول العالم• وبالتالي قد لا تستطيع ان تشبع رغبات مصر كلها • ومن الممكن ان نصل الى أبعد مدى في بعض المجالات التي لا يستطيع احد غير الاتحاد السوفياتي ان يوفرها لنا ، كالصناعة مثلا • اذ لا اتصور اقامة صناعات ثقيلة مع غير الاتحاد السوفياتي • واذا كان هناك بديل له في هذا المجال فانا لا اعرفه خاصة ان امريكا لم تقدم على التعاون معنا وأوروبا الغربية لم تقدر (مثال خط أنابيب البترول من السويس الى الاسكندرية احتاج لاكثر من دولة غربية لكي ينفذوه معا) •

ومن ناحية اخرى نحن نلقى على الاتحاد السوفياتي العبء في مثل هذا المجال · لكن قد تكون هناك مجالات اخرى لا داعـــي لالقاء العبء فيها على الاتحاد السوفياتي مثال مشروعات كالقرى السياحية والطرق والسكك الحديدية وغيرها ·

ان العلاقة الخاصة مع الاتحاد السوفياتي لا تمنع ولا تقيد علاقات مصر بأي دولة أخرى في اطار المصالح المشتركة ·

ـ لكن ما مدى استعداد الاتحاد السوفياتي لان يصل بالعلاقات الى أفــاق ابعـــــد ؟

ـ تنشأ علاقات الدول على مستويات مختلفـــــــة · فالاتحاد السوفياتي يقيم علاقات مع ١٣٠ دولة من « أقصى الرجعية الى أقصى الاشتراكية » وتختلف علاقاته على جميع هذه المستويات فهو يقيم أقوى العلاقات مع الدول التي تعد في صف التحرر الوطني وضد الامبريالية وتسعى للتنمية والتقدم الاقتصادي والاجتماعي · وهو لا يتجاوز فــي علاقاته الاشكال التي تتخذها الدول المتعاونة معه · فعندما تغير الوضع في البرتغال مثلا أو غيرها تغير نوع العلاقة مـــــــــن جانب الاتحاد السوفياتي · ولا أستطيع ان افترض ان الاتحاد السوفياتي يذهب الى أبعد مدى في علاقته بدولة ما دون ان يكون هناك تطور متواز مع هذا الشكل ·· لكي نكون منصفين لانفسنا ·

ان الاتحاد السوفياتي لا يخضع السياسة للاقتصاد كما يقـــال احيانا · ان الاقتصاد يأتي بالتبعية · والدليل ان الاتحـــاد السوفياتي لا يدعم اقتصاديا دولة تتحالف مع اعدائه · قد تقول ان هذا يتعارض مع «الوفاق» (او الانفراج) فأقول ان هناك تناقضات اساسية بيـــــن المعسكرين او المجموعتين · وليس هناك من هو على استعداد منهـــم لتدعيم طرف يتخذ مواقف معادية ·





د٠ اسماعيل صبري عبدالله

- العلاقات مع الاتحاد السوفياتي قضية وطنية في المقام الاول ٠

- قوى الثورة المضادة تحاول تخويف البورجوازية الوطنية من العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ٠

- التحول الاجتماعي قضية داخلية لا ترتبط بعنصر خارجي ٠

- فيم نختلف ونتفق مع الاتحاد السوفياتي ؟

د٠ اسماعيل صبري عبدالله

أهم مميزاته انه لا يلمع بسبب منصب او وظيفة ٠٠٠ لانه لامع بشخصه : ذكاء وكفاءة وثقافة ٠

يتمتع بقدر من المرونة لا تجعل من موقفه الايديولوجي قيدا ثقيلا على حركته او علاقاته بالاخرين ٠ ولعله في ذلك أفضل نموذج يجسد الحكمة المأثورة : « السياسة فن الممكن » !

٠٠٠ لكن المدى الذي يذهب اليه احيانا هو مصدر الاتفاق او الاختلاف بالنسبة لمن يتفقون او يختلفون معه !



قلنا للدكتور اسماعيل صبري عبدالله :

ما هي أسس الاتفاق والاختلاف بين مصر والاتحاد السوفياتي ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

يجب ان نوضح أولا وضع كل من مصر والاتحاد السوفياتي في اطار حركة العالم المعاصر ٠ لان هذا الاطار يتصف بقدر كبير من الاستقرار رغم المتغيرات العابرة ٠ وهو الذي يحدد في النهاية طبيعة العلاقات ٠

فالاتحاد السوفياتي كما هو معروف هو أول دولة اشتراكية في العالم ، نجحت في التمرد على الامبريالية ٠ وفي تكوين قوة عظمى في مواجهة الامبريالية ، ومن هذه الزاوية يعد مجرد وجود الاتحاد السوفياتي وقوته مساندة موضوعية لحركة التحرر الوطني في جميع انحاء العالم ٠

أما مصر فهي في موقع طليعي من حركة التحرر الوطني في العالم ، ومن هنا كان لا بد ان يتم التقاء بينها وبين الاتحاد السوفياتي حول العداء للاستعمار والامبريالية ، والرغبة في تحرير الشعوب ، واقامة عالم يسوده السلام والتقدم · وهو اعتبار قائم ومستمر ·

المسألة الاخرى تتعلق بالاشتراكية · فقد اثبت وجود الاتحاد السوفياتي ونجاحه ان الاشتراكية ليست مجرد حلم يجول بخواطر المحرومين ، وليست مجرد حقيقة عقلانية يقتنع بها المفكرون والعلماء والباحثون ··· ولكنها واقع فعلي وناجح · ومن هذه الزاوية يمكن القول ان التجربة السوفياتية فتحت الباب أمام الشعوب كلها لتصور مجتمع اخر غير المجتمع الرأسمالي والتأكد من امكانية تحقيقه ·

والذي يعنينا هنا أنه مهما اختلفت هذه الدول مع التجربة السوفياتية فان الحقيقة الدائمة هي ان الاشتراكية ممكنة ، والخلاف حولها أمر متوقع ·

هناك اسباب موضوعية للخلاف واسباب اخرى ذاتية · فالاشتراكية رغم المبدأ العام الموحد الذي يحكمها وهو الغاء استغلال الانسان للانسان ليست قالبا جامدا · ولكنها تتأثر من بلد لاخر بتقاليد وقيم وتراث ودرجة نمو كل شعب على حدة ·

هذا هو الاطار الذي تقع فيه العلاقة بين مصر والاتحاد السوفياتي · وهي مرة اخرى علاقة بين دولة نامية تلعب دورا قياديا في حركة التحرر الوطني ، وتضيف الى مجال العمل الوطني ابعادا اجتماعية تستهدف بناء الاشتراكية ، وبين دولة اشتراكية هي في نفس الوقت دولة عظمى ذات امكانيات ضخمة ، تقف في موقع القيادة للمعسكر الاشتراكي ·

ومن هذه الزاوية يمكن ان نكتشف الاساس الحقيقي والدائم للعلاقة بين مصر والاتحاد السوفياتي · ونكتشف ايضا ان الخلافات شيء طبيعي ، لان وجهات النظر لا يمكن ان تتطابق تطابقا كاملا ، لكن

الامر الذي يجب الا يغيب عن البال هو ان هذه الخلافات لا يمكن ان تطغى على طبيعة العلاقة ، وعن كونها تتسم بالدوام ، وهو ما جرت العادة على ان نسميه بالطابع الاستراتيجي للعلاقات المصرية السوفياتية ٠

ـ لكن الخلافات تبدو احيانا اكثر حدة مما يجب بالنسبة لهذا المستوى من العلاقة ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

اذا اردنا ان نعرف لماذا ينتاب العلاقات هذا الشد والجذب من حين لاخر فيجب ان ندرك انها علاقات لا تقوم في فراغ ٠ لقد نشأت وتعيش وسط حركة صراع سياسي واجتماعي على المستوى الداخلي وعلى مستوى الوطن العربي وعلى المستوى العالمي ، وكلا الطرفين يتأثر بهذه الصراعات ويؤثر فيها ٠ ولا يمكن ان نتصور ان تكون العلاقة بين مصر والاتحاد السوفياتي علاقة خالصة ٠ لان العالم ليس قاصرا عليهما ٠ وهما من جانبهما ليسا كيانين مجردين ٠ ان في داخل كل منهما رأيا عاما يضم تيارات مختلفة ، ولكل من الدولتين التزاماتها بالنسبة لقضايا ودول متعددة ٠ ورغم ان هذه الالتزامات لا تتناقض بالضرورة ، الا ان ترتيب الأولويات يختلف وفقا للظروف الموضوعية لكل طرف ٠

بينما يهتم الاتحاد السوفياتي اهتماما خاصا بدول المعسكر الاشتراكي ومشكلة الامن الاوروبي ومسألة التعايش او الانفراج الدولي والسلام العالمي ، يشغل مصر دائما قضية تحرير الاراضي المحتلة وقضية شعب فلسطين ، والتزاماتها العربية والافريقية وقضية التنمية بكل ابعادها المعروفة ٠

وقد يضاف الى ذلك سبب موضوعي اخر يثير نوعا من الخلاف في زاوية الرؤية احيانا وهو ان تتطلع مصر للتقدم والاشتراكية بدءا من نضالها الوطني ٠

فالقضية الوطنية في مصر هي مفتاح اساسي لفهم كل القضايا بما فيها القضية الاجتماعية ، اما الاتحاد السوفياتي فقد بـــدأت تجربته الاشتراكية على أساس اممي ، لان الرأسمالية الحاكمة في أوروبا كانت تستخدم الراية القومية او الوطنية بشكل متعصب وضيق الافق بحيث لم تعد في مضمونها راية وطنية بل استعمارية ٠

ومن هنا كان من تقاليد الحركة العمالية في أوربا ان تشك فـــي الحركات ذات الطابع الوطني او القومي ، وتتجه الى تحقيق معنـى التضامن بين الطبقات المستغلة عبر الحدود ضد الطبقات المستغلة عبر الحـــدود ٠

وثمة جانب اخر له أهميته ايضا اذا نظرنا الى علاقة كـــل من التجربتين السوفياتية والمصرية بـــالدين ٠ فقد وجدت الثورة الروسية نفسها في مواجهة كنيسة منظمة ومرتبطة اوثق الارتباط بالرأسماليـة الكبيرة وبقايا الاقطاع والنظام القيصري ٠

وخاضت الكنيسة كل أنواع الصراع بما فيه الصراع المسلح ضد الثورة ٠ ولذلك كان عداء الثورة الروسية للكنيسة مسألة حتميــــة وقضية اساسية ٠

ومن هنا يختلف الوضع في مصر والعالم الاسلامي اختلافـــا جوهريا ، حيث لا توجد كنيسة منظمة مرتبطة بالـــرجعية والاقطاع ، وحيث لعب الاسلام تاريخيا دورا ايجابيا ضد الاستعمار ٠ وليس هناك من يجهل ان التمسك بالاسلام في المغرب العربي خصوصا وفي الجزائر بشكل أخص كان تمسكا بالشخصية القومية والحضـــارة العربيـة والنضال ضد محاولة «الفرنسة» الاستيعاب للشعوب العربية ٠

ومن هنا لا يحس اي مناضل اشتراكي في بلادنا بتناقض بين المثل الأعلى الاشتراكي وبين ايمانه بالدين ٠ ومن هنا لم تكن المعركة ضـد الدين من الامور الواردة على الاطلاق في التجربة المصرية ، الا مـــن حيث هي معركة ضد الذين يتاجرون بالدين ويحـــاولون استخدامـه

لاغراض طائفية او معادية للتقدم ٠

وكلنا يذكر نموذجا للخلاف في زاوية الرؤية في حديث خروشوف في أسوان عام ١٩٦٤ عندما قال ان العمال في أي بلد أقرب اليكم من أمير الكويت !

لقد كان حديثه تعبيرا نموذجيا نابع من تجربة محددة هي التجربة السوفياتية ٠بينما الوضع يختلف تماما في ظروفنا ٠ فقد اثبتت احداث النضال التحرري العربي ضد الاستعمار ان أمير الكويت يمكن ان يقف الى جـانب حركة التحـرر العربي ضـــد الصهيونية والاستعمار ٠ وقد كان من اليسير علينا ان ندرك هذا الواقع لان منطلقنا هـو حركة تحرر وقضية وطنية وتوحيد قومي ٠

ـ هل ترى في ذلك خطأ في التصور السوفياتي ؟

ـ خطأ بالطبع ٠

ـ لكن هناك حديثا لستالين قال فيه ان أمير الافغان الذي يقاوم الانجليز اقرب الينا من حزب العمال البريطاني الذي يؤيد الاستعمار ٠٠!

ـ قال ستالين هذا الكلام ايضا من واقـــع التجربة السوفياتية وبعد ان قاوم أمير الافغان الاستعمار البريطاني ٠ وليس هناك تناقض٠ وعموما فان موقف الاتحاد السوفياتي لم يجمد عند تصور معين ٠ وهو يتعامل اليوم مع الكويت ومع المغرب ويمدهما بالاسلحة وغيرها ٠٠!

والى جانب هذه الاسباب الموضوعية ، هناك عـــامل لا يجب التهوين من شأنه ٠ وهو الحملة المكثفة التي تستخدم كل الوسائل من جانب القوى الاستعمارية والامبريالية والرجعية لضـــرب العلاقات المصرية السوفياتية ٠ وعلينا الا نتجاهل ان هذه الحملة تحدث بعـض الاثر اذا لم تواجه بالمقاومة والادراك الصحيح من جانب مصر والاتحاد السوفياتي في نفس الوقت ٠

– وماذا عن الاتجاهات المحلية المعادية للعلاقات المصرية السوفياتية ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

توجد بعض الفئات في المجتمع المصري والعربي تخلط ما بين الصراع الاجتماعي الداخلي وبين العلاقة مع الاتحاد السوفياتي ٠

والمفروض ان العلاقة مع الاتحاد السوفياتي قضية وطنية في المقام الاول ٠ انها تتعلق بقوة خارجية ضخمة يمكن ان تساعدنا في نضالنا التحرري ٠ ومن هنا يفترض ان تكون كل القوى الوطنية المعادية للاستعمار حريصة على استمرار هذه العلاقة ، أيا كان موقف هذه القوى من قضية التقدم الاجتماعي ٠

ان الهند وهي دولة يحكمها حزب غير اشتراكي تحرص كل الحرص على ضمان علاقة وطيدة مع الاتحاد السوفياتي ٠ لكن يحدث احيانا ان تتصدى بعض القوى الرافضة للتحول الاجتماعي الى محاولة ضرب العلاقات المصرية السوفياتية ٠ رغم أن قضية التحول الاجتماعي كما ذكرت قضية داخلية ، والعلاقة مع الاتحاد السوفياتي قضية وطنية عامة ٠

– ان الامر يتجاوز هذه الحدود احيانا عندما ينظر الى أي صراع او تحرك داخلي كانه موعز به من الاتحاد السوفياتي ٠٠؟!

هذا هو الشكل السوقي للمسألة ٠٠! لكن المفروض دائما ان نميز تماما بين حاجتنا الى تأييد القوى المعادية للامبريالية ، وبين قضية التحول الاجتماعي الداخلية ٠ ومن المبادىء الثابتة والمعروفة لدى الاشتراكيين ان الثورة لا تصدر ٠ وان تحول بلد من البلاد الى الاشتراكية هو محصلة صراع اجتماعي داخلي ، لا يمكن فرضه من الخارج ٠

– الا يتبادل هذان العنصران التاثير ؟

– انني كاشتراكي اعتقد ان كل شيء يؤدي في النهاية الى

الاشتراكية. وإذا اخذنا بالمنطق العكسي نجد ان الضغط الامريكي على كوبا مثلا قد عجل بالتحول الاشتراكي . لكن الامور اكثر تعقيدا من هذا . والحقيقة ان التحول الاجتماعي يتوقف على محصلة العلاقات الطبقية الداخلية ودرجة نمو هذا البلد اقتصاديا وتطوره الصناعي . لكنه لا يتوقف ابدا على عنصر خارجي .

لكن من الممكن ان أقول ان اي نظام تقدمي يمكن ان يتوقع مساعدة من الاتحاد السوفياتي اكبر من التي يتوقعها نظام وطني لا يطرح قضية التحول الاجتماعي . لكن هذه المساندة هي عامل مساعد وليست هي المحرك الاول للتحول الاجتماعي ، والا فماذا كان يمكن ان يفعل الاتحاد السوفياتي لمنع ضرب التجربة الاشتراكية الديمقراطية داخل شيلي!؟

– هل افادت البورجوازية الوطنية من تجربة التعامل اقتصاديا مع الاتحاد السوفياتي ؟ واذا كان هذا صحيحا فكيف نفسر موقف بعض فئاتها من العلاقات المصرية السوفياتية ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

لا شك ان البورجوازية الوطنية افادت من التعامل مع الاتحاد السوفياتي . والبورجوازية الوطنية هي الطبقة ذات المصالح المتناقضة مع الاستعمار ، مما يدفعها لاتخاذ موقف وطني معادي للاستعمار . وهذا الموقف يجعلها تحرص في المستوى السياسي على العلاقات مع الاتحاد السوفياتي . ولا يؤكد هذا الموقف مجرد وجود مصالح اقتصادية في مستواها البسيط من التصدير والاستيراد وخلافه . ولكن يؤكده المصلحة الاكبر وهي تطوير القدرة على بناء اقتصاد قوي مستقل

– لكن هناك فئات من البورجوازية الوطنية تفضل الاتجاه للغرب ، دون ان تكون عميلة للغرب سياسيا ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

هناك تمييز واضح بين البورجوازية العميلة والمرتبطة عضويا

مع الاستعمار ، وبين فئات واجنحة تتصور ان يكون لها وجود مستقل في اطار النظام الرأسمالي العالمي · وهذه الفئات تتعامل مع النظام الرأسمالي ، وتقبل اشياء وترفض اخرى منتهية الى موقف من اثنين :

اما ان تستوعبها الرأسمالية الغربية ، وتجد نفسها مـــن حيث لا تدري في وضع تبعية ازاء الرأسمالية العالمية ·

أو تتنبه ــ وهو الارجح ــ الى المخاطر التي تهـدد استقلالها ، فتحاول المحافظة عليه ·

وهنا ايضا تثور قضية التطور الاجتماعي الداخلي · ففي وسع اي بورجوازية وطنية في عالم اليوم ان تقيم علاقات بالغرب والشرق وتحافظ على استقلالها · هذا ممكن · لكن القضية تختلط مرة اخرى عندما تقرن تعسفيا بمسألة الصراع الداخلي · اذ ينظر البعض في هذه الحالة الى العلاقة مع الغرب على انها ضمان ضد التحول الاجتماعي ·

ــ هل تعني بامكان قيام علاقات مع الشرق والغرب ما يتردد فـــي بعض الدوائر عن علاقات متوازنة ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

نقطة البداية في الموقف هي عدم اهمال اي فرصة يمكن ان تتاح لدعم الاقتصاد المصري وتوسيع قاعدته الانتاجية مع المحافظة علـــى استقلاله ·

ولست اتخذ موقفا من زاوية ايديولوجية بالنسبة للتوازن بيـــن مصر وكل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية · لكنني أنظر ، حتى بحكم المهنة ، الى الهدف وهو التنمية السريعة والمستقلـة وكل ما من شأنه تدعيمها ·

ومعنى ذلك انه سيكون لنا علاقات بالاتحاد السوفياتي وبالغرب· لكن يجب ان نكون في وضع يسمح لنا بالاختيار ، وليس معنى العلاقات

مع الغرب هو تقبل الشكل الذي يريده الغر بـللعلاقات ٠ لكن معناه اننا نستطيع ان نتعامل مع الغرب وان نحافظ على استقلالنا ٠

يجب ان تكون لنا القدرة على التمييز بين ما هو فـــي صالح الاقتصاد القومي وما يدعمه وبين ما يضر باقتصادنا القومي ٠ وفـــي كل الاحوال يجب ان نحرص على أن تكون القاهرة هي المكان الوحيد الذي تتخذ فيه القرارات المستقلة والمتعلقة بتنمية اقتصادنا ٠

ان الفارق بين التنمية المستقلة والتنمية التابعة (لـــــو صح التعبير) هو أن الاقتصاد القومي في الحالة الثانية يصبح في أيـدي الشركات الاجنبية ٠ أي يصبح قرار انشاء او عـــــدم انشاء هذه الصناعة او تلك ، او التوسع او عدم التوسع فيها قرار صادر مـــن المقر الرئيسي للشركة الاجنبية ، وهذا هو التعبير المادي عـن فقدان الاستقلال الاقتصادي ٠

فما هي حدود التعامل مع الغرب ؟ هنا تدخل عوامل جديدة ٠ لقد كان الغرب يرفض في فترة الحرب الباردة اي محاولة للتصنيع فـــي الدول المستقلة ٠ ولكن الموقف يتغير الان ٠ هناك أسباب عديدة لهـذا التغيير قد يكون من بينها سبب يبدو غريبا وهو «تلوث البيئة» بسبـب كثافة التصنيع !

ان منطقة «كالروفر» في المانيا الغربية لـــم تعد تحتمل مصانع جديدة ٠ واستيراد الايدي العاملة من الخارج اصبح مكلفا ٠ وبدلا من ذلك اصبح هناك من يفكر في بناء مصانع خارج أوروبا والاستفادة من انتاجها بأيدي عاملة أرخص مع حماية البيئة الاوربية من التلوث ٠

هناك اذن ثغرات يمكن النفاذ منها ، ولم تكن متوفرة من قبل ٠

المهم هو قدرة المفاوض المصري على أن يعرف ماذا تريد مصـر بالتحديد ٠ وهذا هو معنى ما نقوله من أن «الانفتاح» يتـــم في اطار الخطة المصرية ٠ أي اننا نحدد متطلبات اقتصادنا القومي ثم نرحب

بمن يستطيع تحقيق مطالبنا بالشروط المعقولة · ويجب في هذه الحالة ان تكون لنا فرصة اختيار أفضل انواع التكنولوجيا الحديثة · فليس هناك بلد متفوق في كل فروع التكنولوجيا · هنـاك اليابان اذا تحدثنا عن الاليكترونيات · وهناك الاتحاد السوفياتي اذا تعلق الامر بمجمعات الحديد والصلب ·

واعتقد ان هناك فرصة للحركة امامنا · ولعل هذا يـرجع الى نتائج الانفراج الدولي او ما يسمى «بالوفاق» ·

ان التقسيم الصارم للعالم الى معسكرات انتهى تقريبا· واصبحت الجسور ممتدة الى كل الجهات · والمهم ان نكون واضحين فيما يتعلق باستقلالنا الاقتصادي ، وبتحديد المشروعات التي نريـدها ، وشكل التنمية الذي نريده ·

وبعد هذا لا يمكن ان تكون مسألة التوازن مسألة حسابية ، أي انني لا استطيع ان أقول ان التوازن يعني ٥٠ بالمئة مع الولايات المتحدة الامريكية و ٥٠ بالمئة مع الاتحاد السوفياتي·هذا تصوير ساذج للامور·

ويبقى عندئذ ان الاتحاد السوفياتي سيبقى المصـدر الاساسي للمساعدة في أهم الصناعات الثقيلة ، والتي ينهض بها القطاع العام · رغم انه من الممكن ان نقول ان الغرب ايضا يقبل في الوقت الحالي فكرة التعاون مع القطاع العام ·

لكن علينا ان نسلم ايضا ان المساعدات التي تلقيناها في عملية تنمية الاقتصاد المصري خلال عشرين عام كانت سوفياتية واشتراكية في الاساس · لا يمكن ان ننكر هذا ·

والى جانب السد العالي ومجمع الحديد والصلب هنـاك العديد من المشروعات الهامة التي تمت بمساعدة الاتحاد السوفياتي · ولقـد افاد القطاع الخاص المصري ايضا من هذه العـلاقة · ان القطاع الخاص الصناعي يجد سوقه الخـارجي الاساسي فـي الاتحاد

السوفياتي · وتصل أرقام التصدير للقطاع الخاص (نسيج واحذية واثاث ·· الخ) الى ما بين ٢٠ ، ٢٥ مليون جنيه سنويا · ومن العبث عموما ان يظن احد ان الانفتاح يعني ان تأتي مساعدات خارجية اخرى لتحل محل المساعدات السوفياتية · لان المقصود من الانفتاح ان نحصل على مساعدات اخرى الى جانب المساعدات السوفياتية ·

ولعل الارقام توضح هذه الحقيقة · ان الخطة الخمسية المقبلة تصل الى حوالي ١٠ الاف مليون جنيه من الاستثمارات · ومن المقدر ان تتكفل الموارد الداخلية بتدبير حوالي ٦٠٠٠ مليون جنيه · ومن هنا يصل حجم التمويل الخارجي الى ٤٠٠٠ مليون جنيه · وهو رقم ضخم لا يمكن الحصول عليه من مصدر واحد · ولذلك فالحديث عن اغلاق مصدر وفتح اخر ليس واردا حتى منوجهة نظر البورجوازية الوطنية·

ـ اذا كانت الامور السياسية والاقتصادية بهذا الوضوح في علاقتنا بالاتحاد السوفياتي فكيف نعمق الفهم المتبادل بين البلدين من مختلف الزوايا ؟

قال الدكتور اسماعيل صبري :

هذا يتعلق بالعوامل الذاتية التي تؤثر في العلاقات · وهي ترتبط كلها بسوء الفهم لموقف معين من جانبنا او من جانب الاتحاد السوفياتي ، وتغير هذا الموقف او ذاك بطريقة مبالغ فيها ، وسوء الفهم للاتحاد السوفياتي ينشأ دائما من عدم المعرفة بنمط الحياة السوفياتية · وبدور الرأي العام واتجاهاته الاساسية ، وبالتكوين القومي المعقد للاتحاد السوفياتي ·

كما ان الجانب السوفياتي ليس متعرفا بالقدر الكافي على مختلف عناصر الحضارة العربية والفكر العربي · او ما يمكن ان نسميه بسلم القيم في المجتمع العربي ·

وهذا يطرح قضية اساسية وهي ضرورة ايجاد الوسائل التي تتيح للطرفين اوثق درجات المعرفة المتبادلة · ان الاتصالات الاساسية

لا تزال قاصرة على المستويات العليا للقادة · ولعل أحد لا يتصور انه مع وجود علاقات عربية سوفياتية بهذا الحجم الهائل فـــان العالم العربي كله لم يفكر حتـــى الآن في انشاء معهـــد لدراسة الشئون السوفياتية · ان الاتحاد السوفياتي موجود ومؤثر في كل قضايانـا أيا كان الخلاف او الاتفاق ، ومن هنا يجب ان نبذل اقصـــى جهد لنعرف ولنؤثر في مواقفه ايضا ، ونحن نقول عادة اننا يجب ان نبذل جهدا للتأثير في الولايات المتحدة رغم مواقفها المعروفة الـى جانب اسرائيل ، فلماذا لا نحاول ان نبذل جهدا مماثلا لـــدى الطرف الذي يقف معنا في الاساس ، وقد يختلف معنا في التفاصيل ؟

ان افتقاد الفهم المتبادل لا يؤثر فقط على درجة تأييـــد الاتحاد السوفياتي لنا ، ولكنه يشكل خطرا حقيقيا على العلاقات نفسها ·

ففي غيبة الفهم العميق المتبادل سيطبق كـــل طرف مقاييسه الخاصة على الطرف الاخر · ومن هنا تنبع المشاكل وتبدأ التناقضات· ان لكل بلد ظروفه ونظرته وقيمه وعلاقاته الاجتماعية التـي لا يمكن تغييرها بجرة قلم · ولذلك فان الجانب السوفياتي مطالب بنظرة أطول مدى ، وبأن يرى المجتمع في حركته · فاذا كنا نقول انه ليس امـــام الدول النامية الا الاشتراكية ، فيجب ان ندرك ان هـــذا الطريق الاشتراكي يتخلله مراحل انتقال طويلة وخطوات الى الامام والخلف· لكن النظرة الاستراتيجية للامور تدرك الهدف النهائـــي دون ان تلقى بالا الى التفاصيل ·

كما اننا مطالبون من جانبنا بان ندرك ان الاتحاد السوفياتـــي يعد الحليف الطبيعي لنا على المدى الطويل · وان ما يسيء الـــى علاقتنا هو التوقف عند بعض المظاهر او التصرفات ومحاولة اعطائها دلالات شاملة ، يمكن ان تغير عناصر الصورة تماما ·

ان جوهر العلاقات المصرية السوفياتية هو التحالف بين حركة التحرر الوطني والقوى الاشتراكية · وهو جوهر يرتبط بأهم مصالح الطرفين · ومن أجل ذلك يجب ان يصان ·

(د· مراد غالب)

- تعليمات عبد الناصر للسفير المصري في موسكو عام ١٩٥٣

- حقيقة ما يقال عن حلم القياصرة والمياه الدافئة ·

- هل يريد السوفيات من مصر التحول الى الماركسية اللينينية ؟

- موقف الاتحاد السوفياتي من الوحدة العربية والاحزاب الشيوعية ·

- هل يمكن ان يتخلى السوفيات عن مساندتنا ؟

- الخلافات لا تزعجنا ··!

(د٠ مراد غالب)

مدرس الطب اخصائي الانف والاذن والحنجرة سابقا هو اكبر خبرائنا في الشئون السوفياتية -

ومنذ ان كان سكرتيرا ثانيا في سفارتنا بموسكو حتـــى اصبح وزيرا للخارجية وهو لا يزال على قناعته بالنسبة لاهم شئوننا الخارجية ٠ الفـرق بينه وبين بعض كبار الدبلوماسيين ، انه يعرف ماذا يجري داخـــــل مصر تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا لكي يعرف كيف يمثـــــل مصر في الخارج ٠



- قلنا للدكتور مراد غالب :

لان علاقتنا بقيادة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ معروفة فنحن نتوقـــع أن نعرف هل كانت الثورة تتجه منذ البداية للتعاون مع الاتحاد السوفياتي ؟ ولماذا؟

قال الدكتور مراد غالب :

عندما قامت الثورة اتجهت مباشرة الى قضية تحـرير الوطن والشعب من الاستعمار والسيطرة والقواعد البريطانية ٠ كانت الثورة تكمل مهمة الحركة الوطنية ، او كانت الحركة الوطنية قد تجسدت في الثورة ٠ ومنذ قيام الثورة عـــرفنا انه لكـــي نستطيع ان نواجه الاستعمار فلا بد ان نتجه الى الاتحاد السوفياتي ٠ وقـد تبلور هـذا الاتجاه مبكرا ، وفي عام ١٩٥٣ على التحديد ٠ ولست أقول هـذا الكلام من باب الاستنتاج او التحليل ولكني اتكلم عن وقائع ٠ لقـــد

كانت المهمة المطلوبة منا قبل أن اذهب الى موسكو عام ١٩٥٣ لاعمل مع سفيرنا هناك يومئذ (الفريق عزيز المصري) هي أن نتكلم اولا مع المسئولين في الاتحاد السوفياتي عن مسألة دعمنا بالسلاح ٠

ـ ما هي تفاصيل هذه الواقعة ؟

كانت هذه تعليمات تلقاها سفيرنا عزيز المصري من القاهرة ٠ وقد حددت التعليمات ان نفاتح المسئولين السوفيات اولا في مسألة السلاح ، وثانيا في مسألة اعدادنا بالبترول خشية ان يؤدي الصدام المرتقب بين الثورة وبين الاستعمار البريطاني المسيطر على مصادرنا الرئيسية في منطقة السويس الى قطع البترول عنا ٠

ـ هل استجاب السوفيات رغم عدم دقة تصورهم في ذلك الوقت للاتجاه الوطني للثورة المصرية ؟

بالنسبة للبترول اجيب طلبنا على الفور ٠ أما بالنسبة للاسلحة فكان رد السوفيات انهم سيفكرون في الامر ٠ وظل الموضوع يبحث منذ عام ١٩٥٣ حتى انتهى بتوقيع اتفاقية التسليح عام ١٩٥٥ ٠

ـ بماذا تفسر المحاولات المكثفة للثورة المصرية للحصول على اسلحة من الغرب والولايات المتحدة الامريكية ثم الاتجاه لجس نبض الاتحاد السوفياتي في نفس الموضوع ، قبل ان نعرف نهائيا ان الولايات المتحدة لن تمدنا بالسلاح؟

قال الدكتور مراد غالب :

اعتقد ان الثورة كانت تدرك بشكل ما ومنذ البداية انه لا سبيل لمكافحة الاستعمار والوقوف ضد السيطرة الاستعمارية الا بقيـــام روابط بين حركة التحرر الوطني والاتحاد السوفياتي ٠

وقد كان واضحا للثورة ايضا كلما سارت في اتجاه تدعيـــم استقلال مصر (سواء عن طريق رفض الدخول في الاحلاف العسكرية عام ٥٤ ـ ١٩٥٥) او باعتناق سياسة عدم الانحياز ، كلما شـــدد

الاستعمار من حربه ضدنا وزاد الاتحاد السوفياتي من تدعيمه لنا ٠

ولقد اثبتت الاحداث صحة هذا التصور ٠

فلقد ووجهت عملية تحرير مصر وتدعيم استقلالها بمعركة قاسية من جانب الاستعمار وبمزيد من تدعيم العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ٠ وكما يعرف الجميع بدأت العلاقات المصرية السوفياتية تأخذ شكلها الجاد بعد ان تحدد موقفنا واصبح واضحا ابتداء من معركتنا ضد الانضمام لحلف بغداد ، وعندما قررنا الذهاب الى باندونج ٠ فقد كانت سياسة عدم الانحياز والابتعاد عن المعسكرات هي أساس الفكر السياسي لباندونج ٠

- الا ترى تعارضا بين مسألة الطلب المباشر من جانبنا لاسلحة سوفياتية عام ١٩٥٣ وبين واقعة اخرى مؤكدة وهي ان عبد الناصر اتفق مع شواين لاي في باندونغ على أن يتوسط لنا الاخير في طلب اسلحة من الاتحاد السوفياتي ؟

قال الدكتور غالب :

لا أرى اي تعارض ٠ فما أقوله واقعة تاريخية صحيحة أملك الدليل على صحتها ٠ وليس هناك ما يمنع بعدئذ ، (عندما فقدنا الامل نهائيا في وصول اسلحة اميركية) ان يطلب عبد الناصر من شواين لاي ان يتحدث مع السوفيات في هذا الموضوع ، او يهتم شواين لاى بان يطلب ذلك من السوفيات عندما عرف برغبة عبد الناصر في الحصول على اسلحة سوفياتية ٠

ولكن في كل الاحوال لا تتخذ الدول قراراتها في المسائل الاساسية لمجرد وجود وسيط ٠ أما الخطوة الاساسية الاولى فقد كانت من جانبنا نحن من أجل التخلص من السيطرة البريطانية ، وكانت الاستجابة نتيجة اقتناع ذاتي من جانب الاتحاد السوفياتي دون تقليل من أي دور لعبه شواين لاى في هذا الشأن ٠

ولست اتصور ان الاتحاد السوفياتي كدولة كبرى يغير سياسته الاستراتيجية او يرسم سياسة جديدة بناء على طلب او واسطة ما ٠ لكن الاصل هو ان يقرر الاتحاد السوفياتي لنفسه سياسة استراتيجية في المنطقة وهي تدعيم حركة الاستقلال والتحرر الوطني في الشرق الاوسط وافريقيا وغيرها ٠٠ ثم بناء على ذلك يتخذ قـــرارا بتقديم السلاح ٠

ـ لكن أليس «من المعروف» ان الثورة المصرية كانت فـــي بدايتها تشكك في الاتحاد السوفياتي او تضع الاتحاد السوفياتي على نفس المستوى مـــع الولايات المتحدة الامريكية ، على أحسن الفروض !؟

قال الدكتور مراد غالب :

أستطيع ان أقول ان الثورة المصرية لم تضع الاتحاد السوفياتي على نفس المستوى مع الولايات المتحدة الامريكية منــــذ البداية ٠ والدليل اننا طلبنا اسلحة من الاتحاد السوفياتي ووقعنا معه اتفاقية التسليح المعروفة عام ١٩٥٥ ٠ وأقول ايضا ان الثورة المصرية كانت ترى منذ البدايات الاولى اننا لا نستطيع ان نكافح الاستعمار كفاحا حقيقيا الا بالتعاون مع قوى غير مرتبطة بالاستعمار العالمي وهـــي الاتحاد السوفياتي ٠

ولقد تطور الموقف بعد حصولنا على الاسلحة الى مرحلة نوعية جديدة وهي مرحلة بناء مجتمع مصري جديد ٠ او بمعنى اخـر نقـل مصر (الدولة المتخلفة يومئذ) الى طريق التصنيع والتقدم ٠ ومن ثم وقعنا مع الاتحاد السوفياتي اتفاقيات التصنيع والسد العالي ٠ وهي اكبر اتفاقيات عقدناها مع أي دولة ، كما ان اتفاقية الســد العالي هي أكبر اتفاقية يعقدها الاتحاد السوفياتي مع دول العـــالم الثالث التي تكافح من أجل التحرر ٠

انني ارى ان هاتين الاتفاقيتين هما بداية الدخول في المرحلــة النوعية الجديدة ، او الانتقال من علاقات مبنية على مكافحة الاستعمار

وتدعيم الاستقلال الـــــى مرحلة التخطيط والتصنيـــع والتنمية الاقتصادية ·

ورغم ان المرحلتين مرتبطتان ويصعب الفصل بينهمـــا الا انني أريد ان اميز بينهما ، لان المرحلة الاولى هي التي افضت بنا الـــى المرحلة الثانية · والمرحلة الثانية هي التي تدعم الاولى ·

ولعل الخطوات الواضحة والمؤكدة التي قطعتها مصر في هذا الخط جعلت الاستعمار يحس ان هنـاك خطـرا على مصالحه غيـــر المشروعة ونفوذه التقليدي في المنطقة العربية كلها ·

وهنا أود ان اتوقف قليلا عند بعض الدعاوى التي تزعم اننا أخطأنا برفعنا لواء محاربة الاستعمار في كل مكان ، واننا خرجنا عن حدود مصر وتنمية الاقتصاد المصري الى معارك بعيدة عن الوطن !

وهذه المزاعم باطلة من أساسها ، لان مجرد سير مصر فـــي طريق تدعيم استقلالها ووضع أسس البناء الاقتصادي والاجتماعي الجديد من أجل مصالح الشعب المصري ، هو «المبرر» الوحيد الذي استند عليه الاستعمار وجميع مؤيديه في المنطقة لضـــرب وتحطيم الثورة المصرية · ومن هنا كان على الثورة وعلى مصر ان تدافع عن نفسها ضد الاستعمار والقوى التي تسانده في مصر والوطن العربي · لقد كان للثورة المصرية دور أساسي بالطبع داخل مصر واشعاع يصل الى كل انحاء المنطقة العربية· لكن الثورة المصرية لـــــم تكن من « هواة الشغب » ولم ترسم حدودا خيالية ولم تستفز احـدا · كانت تركز كل جهودها داخل مصر اخذة بعين الاعتبار ان تتعاطف كحركة تحررية مع أي حركة اخرى تسير في نفس الاتجاه ··

الحقيقة اذن ان الثورة المصرية كانت دائما عرضة للاستفزاز من جانب القوى الاستعمارية وليس العكس ·

ربما كان في ذلك بعض الاستطراد ، لكن أردت ان أبين الاساس الموضوعي الذي يجعل الثورة المصرية تفرق منذ البداية بين القوى

المؤيدة لتحررنا وتقدمنا والقوى التي تعمل لضرب الثـــــورة بكل الوسائل ٠

ـ ما هي في رايكم الاسس الفكرية والسياسية التـــي تشكل المواقف السوفياتية ازاءنا ؟

قال الدكتور مراد غالب :

أول هذه الاسس ان سياسة الاتحاد السوفياتي ضد الاستعمار والامبريالية ٠ وان المعركة ضد الاستعمار تستدعـــي بالضرورة مساعدة حركة تحرير الشعوب ٠

ويؤمن الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية بانه لكي تضرب القوى الاستعمارية في الصميم لا بد ان تقوض مراكزها في العالم ٠ بمعنى ان تضرب وتصفى القواعد الاستعمارية لكـــي تنتصر على الاستعمار العالمي ٠ اذن فتدعيم حركات التحرر الوطني في افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية هو أحد الوسائل المهمة للمساهمة في حصار القواعد الاستعمارية وتصفيتها ، ولهذا فهو جزء اساسي من السياسة السوفياتية ٠ واعتـــقد ان المؤتمر العشرين للحـــزب الشيوعي السوفياتي يمثل نقطة تحول نوعي في السياسة السوفياتية لتدعيم حركات التحرر في العالم بشكل اكثر ايجـــابية ، ودخول الاتحاد السوفياتي كقوة صديقة وحليفة لحركات التحرر الوطني ٠ هذا هو الاساس الفكري ٠ لكن هناك أساسا اخـــر « سياسي ـ جغرافي » (جيوبوليتيكى) فمكانة مصر معروفة من هذه الناحية ، وكذلك دورها في العالم العربي وكجزء من افريقيا ، وكحلقة اتصال بيـــن الشرق والغرب ٠

ولذلك فان موقع مصر ودورها يضيفان الى المساندة السوفياتية لها بعدا او دافعا جديدا ٠ فاذا كان الاتحاد السوفياتي يتحرك مـــن حيث المبدأ لمساعدة كل حركات التحرر ، الا انه لا يستطيع ان يغطى كل مكان على جبهة واسعة بامتداد العالم بنفس القـــدر ٠ ومن هنـــا

تبدأ الافضليات في المساعدة نوعا وكما ، وحيث تكـــون الظروف الموضوعية لبلد ما اكثر نضجا واقوى تأثيرا في حركة التحرر العالمية وكل هذه الظروف الموضوعية توفرت اكثر ما توفرت في مصر ·

ـ ما رايك فيما «يقال» عن «حلم القياصرة» القديم والذي لا يزال يراود السوفيات عن رغبتهم في الدخول الى «المياه الدافئة» بأي ثمن !؟

قال الدكتور مراد غالب :

ما أبسط ان يفند السوفيات هذا «المنطق» ـ ان صح ان له علاقة بالمنطق · يستطيعون القول أنهم دولة اشتراكية لكنهم دولة كبرى في نفس الوقت · وان امكانيات الدولة القوية الكبرى تسمح لها بالتواجد في أي مكان من المياه الدولية دون وجود قواعد لهـــا فيها · وهـــم موجودون في المحيط الاطلنطي بل وفي المحيط المتجمد الجنوبي دون أن تكون لهم قواعد او تسهيلات او اصدقاء هناك · والذين يتواجدون في المحيط المتجمد الجنوبي يمكن ان يتواجدوا فـــــي البحر الابيض المتوسط ·

ـ بحكم عملك كسفير سابق لنا في الاتحاد السوفياتي لسنوات طويلة الم تطرح على السوفيات سؤالا محددا حول ما يريدونه بالدقة في هذه المنطقة ؟

قال الدكتور غالب :

لقد طرح هذا السؤال عليهم في صور متعددة · وقلنا لهم في بعض الاحيان ان الناس يتساءلون ماذا يريـــد السوفيات · وكانت اجابتهم بصراحة ودون مواربة : « اننا نتمنى طبعا ان نراكـم دولة اشتراكية ، واذا قلنا غير هكذا فاننا نكذب · لكن عليكم ان تتأكـدوا ان الطريقة التي تصلون بها الى الاشتراكية او العمليات الاجتماعية والاقتصادية التي تؤدي بكم الى الاشتراكية هي قضيتـكم الداخلية الخاصة ، واي تدخل من اي جهة اجنبية في هذا الشـأن تعـــد مـــن قبيل العبث تؤدي الى نتائج لا تفيد قضية التحرر او الاشتراكية · ان

الذين قد يتصورون ان الاتحاد السوفياتي يمكن او يحاول ان يرغمكم على اتباع طريق او شكل او تطبيق معين ، يرتكبون خطأ جسيما ولا يعرفون شيئا عن أبسط مبادىء الاشتراكية !

– اذن هم يريدون ان نكون دولة ماركسية لينينية ؟

قال الدكتور مراد غالب :

لم يحدث ان تعرضوا لهذا الموضوع في يوم من الايـام ٠ لكنهم يقولون اننا نتمنى ان نرى مصر والعالم كله اشتراكيون ، لاننا نؤمن بالاشتراكية ونحبها ٠ ومن الطبيعي ان نتمنى لاصدقائنا ما نحب ٠ لكن هذه الامور متروكة لكم تماما ، ومن صميم شئونكم الداخلية ٠

– ما هو مفهوم الاشتراكية في هذه الحالة لدى الاتحاد السوفياتي ؟

قال الدكتور مراد غالب :

المفهوم الاساسي للاشتراكية لدى الاتحاد السوفياتي انها نظام ضد الامبريالية وضد استغلال الانسان ٠ وأذكر ان السوفيات كانوا يقولون عندما يثور الحديث حول هذه الامور : « سيروا في طريقكم كما تشاؤون ، وطبقوا ميثاقكم الوطني » ٠

ومن الطبيعي انهم يشجعون التطبيق الاشتراكي في مصـر ، لكن ليس عن طـريق تدخـل او تسلل من أي نوع ٠ وبنفس الطريقـة يشجعون سياستنا الخارجية المعادية للاستعمار والمساندة لحركـة التحرر الوطني العربية ، لكن هناك فارقا كبيرا بين ان نقول انهـم يشجعوننا ، وبين القول بانهم « يدفعوننا » او «يتآمرون» معنا ٠ انـه خطنا نحن اساسا ، وهم يشجعوننا بعد ان قررناه وننفذه ٠

– قبل ان نقيم مظاهر واسباب الازمات التي تتعرض لها العلاقات المصرية السوفياتية ، هل يمكن ان نعرف منكم بعض الحقائق حول الانذار السوفياتي لدول العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، ثم دور الاتحاد السوفياتي عام ١٩٦٧ ؟

قال الدكتور مراد غالب :

أولا فيما يتعلق بالانذار السوفياتي عام ١٩٥٦ وما تردد من بعض الاوساط حول الانذار بعد سنوات طويلة ، اود أن أقول ان القتال توقف بعد ذلك الانذار القوي والحاسم · ان ما تردد حول الانذار من بعض الدوائر المعادية للاتحاد السوفياتي لا يخرج عن كونه تكهنات لا تستند الى الواقع · فهم يقولون أن الانذار لم يكن جديا ؟ حسنا ··· هل نحن نحكم في السياسة بالنوايا او بالاثار المادية والواقعية ؟ لقد أدى الانذار الهدف منه في تدعيم الثورة المصرية ومساندة الشعب والجيش المصري في رد العدوان الثلاثي · كما أنه لم يكن بالتأكيد مبنيا على فكرة « صراع القوى » بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية · لقد كان نابعا من فهم حقيقي لطبيعة الظروف التي تمر بها حركة الثورة الوطنية ، والنتائج الوخيمة التي قد تترتب على هزيمة الثورة لو تركت لمصيرها أمام عدوان من ثلاث دول أقوى عددا وعدة ·

أما الجزء الاخر فلعله يتعلق بما يتردد عن مسئولية الاتحاد السوفياتي عن هزيمة ١٩٦٧ · ولقد عاصرت كل الاتصالات المصرية السوفياتية في ذلك الوقت كسفير لمصر في موسكو · ومن المهم ان نكون منصفين لانفسنا ولاصدقائنا ·

ان تسلسل الوقائع كان كما يلي :

– في ابريل عام ١٩٦٧ لفت الاتحاد السوفياتي انظارنا الى ان هناك مؤامرة تعد لضرب مصر · ونصحنا بان نكون متيقظين تماما لان كل القوى الاستعمارية وعملائها في المنطقة يتجمعون لهذا الهدف·

– ابتداء من مايو سنة ١٩٦٧ ، بدأ الاتحاد السوفياتي ينصح بأن نقلل من حدة التوتر في المنطقة ولا نعطي اي فرصة للاستعمار لضرب مصر ، وذلك دون ان نتخلى عن يقظتنا في نفس الوقت ·

– هل كان هناك تنسيق مع السوفيات قبل تحريك قواتنا الى سيناء ؟

لم يحدث أي تنسيق · وعندما اتخذنا قرارا باغـــــلاق خليج العقبة انزعج السوفيات بسبب ازدياد حدة التوتر ، ونصحـونا بـأن نبدأ بسرعة في تخفيف التوتر · وكان رأيهم في ذلك الوقت اننا حققنا مكاسب مادية ومعنوية كثيرة حتى تلك اللحظة وقالوا لنا انكم أزلتم أثار عدوان ١٩٥٦ باعادة سيطرتكم على شرم الشيـخ ، واثبتم انكم أقوياء وعليكم ان تهبطوا بحالة التوتر وتكتفوا بما تحقق ·

ـ لكن لماذا بدا تجميع القوى الاستعمارية في ١٩٦٧ بالذات لضرب مصر؟

قال الدكتور مراد غالب :

السبب في رأيي ان تلك القوى كانت قـــد استهلكت تماما كل الفرص لاعادة السيطرة مرة اخرى على مصر · كما يئست تمــاما من جدوى المحاولات السابقة لتقليص دور مصر كحركة تحرر في المنطقة· وبالتالي انتهت محاولات احتواء الثورة وتصفيتها من الداخل وقررت ان توجه لها ضربة مباشرة ·

ولعل الرجوع الى خطاب عبد الناصر الذي القاه في أول مايو سنة ١٩٦٧ بمناسبة الاحتفال بعيد العمال يبين الى أي مــدى كانت مصر مصممة على مواصلة طريقها ، رغم ما كانت تتعرض له مـــن مؤامرات متعددة الجوانب من كل القوى الاستعمارية ومن يمثلونها ·

ـ ثمة مسالة اخرى تثير تساؤلات وهي موقف السوفيات من الوحدة العربية · هل كانوا قلقين من احتمالات الوحدة العربية ومن بعض المواقـف الرسمية بالنسبة للاحزاب الشيوعية العربية ؟

قال الدكتور مراد غالب :

لا اعتقد ان الاتحاد السوفياتي ضد الوحدة العربية كمبدأ · لقد كان رأيه دائما تأييد الوحدة العربية ومساندتها · لكنـه فـــي نفس الوقت يهتم بمحتوى او مضمون هذه الوحدة · ما هـــو اتجاهها

الاساسي ؟ وهل تستمر معادية للاستعمار ومع خط التطور الاشتراكي ؟ او هل تصل الى صيغة وسط تفقدها المحتوى الاساسي ؟ .. هذه هي مخاوفه .

اما من ناحية الاحزاب الشيوعية العربية فلا يتصور احد ان يطلب من السوفيات ان يساعدوا على انهائها وضربها . ومن الخطأ ان يبني احد حساباته على هذا الاساس . وبالتالي فلم يكن مستغربا ان يؤثر موقف الحركة الوحدوية من تهديد لبعض الاحزاب الشيوعية في ذلك الوقت على مدى التأييد الذي كنا نأمله، كما سبب بعض التناقض في تلك المرحلة بين الحركة الوحدوية وبين الاتحاد السوفياتي .

ـ وكيف تم حل هذا التناقض ؟

قال الدكتور مراد غالب :

لقد حل هذا التناقض بأن وعى كلا الجانبين الدرس تماما .

فما هو الشيء الاساسي في المنطقة العربية ؟ انه حركة التحرر الوطني والقومي . ومن هنا يجب التركيز على هذا الهدف الاساسي ولذلك لم يعد السؤال هل نضع الاحزاب الشيوعية قبل او بعد حركة التحرر ؟

ان الاتحاد السوفياتي يدرك ان حركة التحرر المعادية للاستعمار والامبريالية في العالم الثالث هي المسألة الاساسية ، وعندما يحدث صراع بين الطرفين تتأزم العلاقات مع الاتحاد السوفياتي فتظهر بعض العقبات .

ولذلك فمن المهم جدا في هذه المرحلة اعادة الحسابات والتقديرات على اساس سليم ، ثم ترتيب الاسبقيات بالنسبة لكل الاطراف . وفي هذه الحالة سنكتشف ان التناقض بيننا ليس اساسيا، ما دام الخط الرئيسي واحد وهو ان المعركة او المهمة الاولى هي تصفية الاستعمار والامبريالية وتدعيم حركة التحرر الوطني .

وهذا يعني في التطبيق العملي انه عندما نجــــد ان التناقض الثانوي او الصراع يمكـــــن ان يمس العلاقات الاساسية بيننا وبين الاتحاد السوفياتي بما يؤدي الى اضعاف حركة التحرر ، فــان كلا الجانبين يعيد حساباته ومواقفـــه بحيث تستمر العلاقة بكل اندفاعها وحرارتها بين حركة التحرر والاتحاد السوفياتي ، لقد كان ذلك يحدث في كل الازمات ، ولا يزال يحدث ايضا ٠

ـ تقول بعض الدوائر ان الاتحاد السوفياتي يضغط بالمساعدات « منحا ومنعا » وفقا لاهدافه الخاصة ؟

قال الدكتور مراد غالب :

هذا كنا نسمعه ونعرف مصادره ٠ لكن تجربتنا العملية تثبت غير هذا ٠لقد وقعنا اتفاقية المرحلة الثانية للسد العالي بينما الصراع على أشده بين الاحزاب الشيوعية وبين عبد الناصر ٠

ولقد وصلت انا كسفير الى موسكو في ذلك الوقت وكان النزاع في أوجه ٠ وكان سفري قد تأجل قبل ذلك (عام ١٩٦١) كنوع مــن الاحتجاج على هذا النزاع ٠ ومع ذلك لم يتأخر تصدير معدات السد العالي الينا ، ونفذت الاتفاقيات العسكرية في موعدها ٠

وأستطيع ان اقول ان الاتحاد السوفياتي كان يرى بوضوح انه لا بد من التركيز على أساس العلاقات وهو الهـدف المشترك لتدعيم حركة التحرر وضرب الاستعمار وتطوير المجتمع ٠ وبالتالي ففي كل فترات التناقض كان الطرفــان يراجعان علاقاتهمـــا ويدعان مسببات النزاع لكي لا يتأثر الخط العام الاساسي المشترك ٠

ـ كيف تتجنب المشاكل والعقبات فـــــــي العلاقات المصرية السوفياتية ٠ ومن المسئول عن نشوء الخلافات من حين لاخر ؟

قال الدكتور مراد غالب :

من الناحية العملية لا يمكن ان تنطبق مصالح اي طرفين حتى

بين الاخوة · ولذلك فلا بد ان نتوقع دائما نشوء خلافات بين الاصدقاء في العلاقات الدولية · ان العلاقات بين الدول أو بين الشعوب علاقات متحركة وحية · وهي ليست بسيطة ولكنها مركبة ، بمعنـــــى انها تشمل عناصر كثيرة متباينة · والحياة تخلق مشاكل جديدة باستمرار، وعلى كل الاطراف ان تتبين وتدرك اي تطور حتى قبل ان يقع · لكن هناك مسألة هامة اطرحها أنا هذه المرة : هل العلاقة مـــــع الاتحاد السوفياتي استراتيجية او مؤقتة ؟ اذا كانت عـــــلاقة أساسية او استراتيجية فستحدث تناقضات بالتأكيد ولكنها لـــن تكون تناقضات اساسية · ومن هنا فلنتناقض او نختلف حـــول التفصيل والمواقف المتغيرة مع الاحتفاظ دائما بأكبر قدر من التناسق والوحدة حـــــول المواقف الاساسية او الثابتة · ان التناقض حول المواقف الثانوية او المتغيرة يجب ان يحل بالحوار والتفهم المستمر ·

- هل تعتقد ان السوفيات بطيئو الاستجابة احيانا او لا يتصرفون معنـــا كما تتصرف الولايات المتحدة الامريكية مع اسرائيل ؟

قال الدكتور مراد غالب :

أعتقد انه من غير الممكن ان اطلب من الاتحـــاد السوفياتي ان يكون أمريكيا في سلوكه وتفكيره وطريقة تناوله للمشاكـــــل · انه بالضبط كما لو اطلب من الامريكي ان يكون سوفياتيا ·

وكل شعب ونظام لهما في النهاية اسلوب حياتهما وتفكيرهما · انني لا يمكن ان اعيب على السوفيات انهم يدرسون الموضوع مـــــن جميع جوانبه · لكن علي ان اسأل نفسي هـــــل الاتحاد السوفياتي قوة تساعدني ؟ فاذا كان الرد بالايجاب ··· وهو كذلك بالفعل ، فعلي ان اساعد الاتحاد السوفياتي في أن يساعدني ·

ثم كيف اعيب على السوفيات مسألة البطء ؟ ألم يقيموا جسرا جويا على جناح السرعة عندما استدعى الامر ذلك في حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣؟ ألم يصدروا الامر الى سفنهم المحملة بالقمح الى بلادهم لكي تغير طريقها وتتجــه الى مصر فورا في يونيو سنة ١٩٦٥ ، حيث

هبط احتياطي القمح لدينا في ذلك الوقت الى حوالي خمسة عشر يوما فقـــط ؟

ـ «يقولون» ان الاتحاد السوفياتي يتلكأ احيانا في مساعدتنا لان حـــل النزاع العربي الاسرائيلي قد يجعلنا في غير حاجة اليه ؟

قال الدكتور مراد غالب :

هذه ـ ربما ـ من اكثر التقولات بعدا عن أي منطق ، لقد شهدت مدى حزن ومرارة السوفيات مواطنين ومسئولين بعد هزيمة ١٩٦٧ التي حلت بنـــا · ان اي ضربة ضدنا تصيبهـــــم بنفس الاضرار والخسائر · ثم أن مسألة اسرائيل بالنسبة للاتحاد السوفياتي ليست مجرد موقف ضد الاستعمار والامبريالية · ان الصهيونية فــي نظر الاتحاد السوفياتي كالامبريالية سواء بسواء · وهـــــي تشكل في اعتقاد الاتحاد السوفياتي نفس الخطر بالنسبة اليه · ولعلكم تعرفون أن التأييد السوفياتي للعرب أيقظ داخل الاتحاد السوفياتي او شجع العناصر الصهيونية على ايقاظ بعض جوانب المشـــكلة اليهودية ، واعطى للحركة الصهيونية فرصة القيام باثارة عناصـــر سوفياتية يهودية وصهيونية للعمل ضد الاتحاد السوفياتي ، ولـو أن الاتحاد السوفياتي ينظر الى مصلحة خاصة ضيقة ، لما كان أغناه عن اثارة مشاكل داخلية ، لو قبل التهادن مع الصهيونية · لكنه يتخذ في ذلك موقفا مبدئيا لا يقبل المساومة ·

ـ في ظل «الانفراج» الدولي الـــذي يسميه البعض تجـــاوزا او خطأ «بالوفاق» هل يمكن ان يتخلى الاتحاد السوفياتي عن مساندتنا اذا فرضت عليه مصالحه الاساسية ذلك ؟

قال الدكتور مراد غالب :

ان من مصالح الاتحاد السوفياتي الاساسية ايضا ان تكون له علاقات معنا ، كما ان من مصالحنا الاساسية ان تكون لنـا علاقات

معه . وكما سبق ان ذكرت فان خلافاتنا لا تتعدى المسائل الثانوية التي لا تؤثر على الخط العام . ومن الواضح ان نقاط الاتفاق والالتقاء بيننا وبين الاتحاد السوفياتي أهم واكبر وابقى من نقاط الخلاف مهما كانت الظروف . أما ما يقال عن الانفراج او الوفاق فهو مسألة محيرة حقـا !

ففي ظل الاستقطاب الحاد والنزاع بين المعسكرين «يقولون» انه طالما هناك هذا التناقض الحاد فان الولايات المتحدة لن تقبل المساهمة في حل المشكلة ، واذا حدث انفراج او وفاق يقولون انهم سيقفون ضدنا . ان من يريد ان يقول بدون اساس لن يكف عن مثل هذه الاساليب أيا كان موقف الاتحاد السوفياتي !

لكنني اود أن أقول أنه في ظل الانفراج الدولي ، ورغم محاولات التهدئة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية ، فـان ذلك لا يعني وجود تطابق بين موقفي الدولتين ، كما لا يعني اختفاء التناقضات الاساسية بينهما .

ان التناقض مستمر ولكنه يتخذ شكلا جديدا في ظل المتغيرات الضخمة التي حدثت في العالم . لقد اصبحت مسألة الحرب النووية واحتمالاتها كابوسا رهيبا يزعج كل الاطراف أيا كانت قوتها .

ومن هنا فان جوهر الانفراج هو استبعاد مسببات وأسلوب الحرب النووية لحل المشاكل ، وهذا لا يعني أن واشنطن وموسكو متفقتان تماما . وبالتالي لا يعني أن أحدهما يمكن أن يبيع مصالحه وحلفاءه وأصدقاءه لحساب الاخر .

وبالنسبة للشرق الاوسط فمن غير المعقول أن أتصور أن النزاع بين أمريكا والاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط يجب أن يستمر بنفس الشكل .

- هل الانفراج او التهدئة بين الدولتين الكبريين هو نوع من تقسيم العالم كما حدث في القرن التاسع عشر او نوع من التعايش النشط ؟

قال الدكتور مراد غالب :

ان تصور العالـم في اساليب ومفاهيم القـرن التاسع عشـر مسألة غير عملية وغير طبيعية · ان ذلك يعني أن العالم قد تجمـد ، ويعني أن الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي على وضـع ثابت وهذا مستحيل ·

أن ما أتصوره ليس تقسيم النفوذ بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي ، ولكن من الممكن أن يتفقا على أن مشكلة محلية لا يجب أن تتصاعد لتؤدي الى مواجهة عسكرية شاملة · وليس معنى ذلك بيع حركات التحرر من جانب الاتحاد السوفياتي · كما لا تعنـي تخلي الولايات المتحدة الامريكية عن نفوذها وأصدقائها ·

ان الاحداث الاخيرة تثبت هذا التصور · فمشكلة قبرص التـي نشبت منذ اكثر من سنة أكدت عدم تطابق الموقف بين أمريكا والاتحاد السوفيتي · وكذلـك الامر فيما يتعلق بأهم المشاكل العالمية ·

- هل تنظر الى الاتحاد السوفياتي كدولة اشتراكية او كدولة كبرى ؟

قال الدكتور مراد غالب :

لا أستطيع أن أفصل بين أن الاتحاد السوفييتي دولة اشتراكية وبين أنه دولة كبرى ·· انه دولة كبرى واشتراكية في نفس الوقت وله التزامات تفرضها عليه هاتان الصفتان ·

- لكن الا ترى تناقضا بين الصفتين ؟

قال الدكتور مراد غالب :

هذا سؤال نظري ، لانه يعني أن نحكم على الاتحاد السوفييتي

بانفصام الشخصية ٠ وعندما أقول فلان هذا محتواه كـذا وكذا ٠٠٠ فمن الصعب فصل هذا الانسان عن محتواه ٠

ـ اثناء الانتخابات الفرنسية الاخيرة حول منصب رئاسة الجمهورية زار السفير السوفياتي في باريس فاليري جيسكار ديستان المرشح المنافس لاتحاد اليسار الذي يضم الحزب الشيوعي ٠ واحتج يومئذ اتحاد اليسار والحـزب الشيوعي ٠ وقيل يومئذ في بعض الدوائر ان الاتحاد السوفياتي يغلب مصالحه كدولة بغض النظر عن هزيمة اليسار والحزب الشيوعي ؟

قال الدكتور مراد غالب :

هذا أحد التفسيرات ، لكنه ليس التفسير الوحيد ٠ لماذا لا ننظر الى الموقف على أساس أن الاحزاب الشيوعية داخل البلاد المختلفـة أحزاب وطنية ، لا يجمعها مع الاتحاد السوفييتي سوى الفكر ؟ لمـاذا لا ننظر الى الاتحاد السوفييتي على أساس أنه لا يتدخل لمساندة قوى داخلية ضد أخرى ؟

ان الحزب الشيوعي الفرنسي يتمتع باستقلاله التام في تحركه السياسي داخل فرنسا ٠ والاتحاد السوفييتي ليس طرفا في عمليات داخلية ٠ لكن الحزب الشيوعي الفرنسي جزء من الحركة الشيوعيـة العالمية في نفس الوقت ، وله عـلاقات خاصـة بالحزب الشيوعي السوفييتي ٠ وعندما يحدث أن يشارك الحزب في معركة داخلية فرنسية فهو يقود معركته كقوة داخلية ٠

انني أرى في هذه الواقعة ظاهرة صحية تماما ٠ ثم قولوا لنا : اذا التقى السـفير السوفييتي بالمرشـح اليميني يقال أن الاتحـاد السوفييتي يتخلى عن الحزب الشيوعي ! واذا التقى بالمرشح اليساري يقال أنه يتدخل لصالح الشيوعية ؟ !!

انني اذكر في هذه المناسبة عبارة معروفـة لمسؤول سوفييتي حزبي وحكومي كبير ٠ ففي احد المؤتمرات التقى المسؤول السوفييتي

بأحد سكرتيري الاحزاب الشيوعية في أمريكا اللاتينية • فبادره الاخير متسائلا : ماذا ستفعلون لنا اذا نجحنا في الاستيلاء على السلطة ؟ قال المسئول السوفييتي : سنرسل لكم برقية تهنئة !!

- هل تعتقد ان تجدد الخلافات واتساعها بين الاتحاد السوفياتي واصدقائه يمكن ان يقوى «انصار العزلة» هنا او هناك ؟

قال الدكتور مراد غالب :

هذه مواقف وخبرات ليست جديدة بالنسبة للدول • ففي مصر أيضا كثيرا ما نحس ببعض المرارة بسبب ما تلقاه من نكران لدى بعض الاشقاء ، رغم أن مصر لم تبخل بشيء على أشقائها في كل الظروف• ورغم أن شعبنا يعد من أكثر الشعوب العربية فقرا • لكن هل مثل هذه الامور تغير في الموقف الاساسي المبدئي لدولة ما ؟ لا أظن •

وفي مثل هذه الاحوال تعيد الدولة حساباتها رغم أي مرارة وتتساءل : أليست هذه مبادئي ومصالحي ؟ ان تنكر أخ لي يحز في نفسي وقد يبطيء من استجابتي لمطالبه ولكنه أخي في النهاية وسأقف الى جانبه رغم كل الظروف !

ومن الطبيعي ايضا ان تكون هناك مواقف تتسم بالحدة وليست سليمة مائة في المائة من هنا أو هناك ••• لكنها سرعان ما تنحصر وتعود المياه الى مجاريها •

اننا نقول أحيانا - «مثلا» - ان الاتحاد السوفييتي لديه كل شيء • انه يملك صواريخ تنطلق وتؤدي الغرض بمجرد الضغط على بضعة أزرار •• فلماذا لا يعطينا ما نطلب ؟

ورغم مشروعية أحساسنا وحاجتنا ، لكن هناك زوايا عديدة للنظر الى مثل هذه الاسلحة ويمكن أن تفعل نفس الشيء مع خصومنا ••• مثلا •

ان التناقض الذي يحدث في علاقاتنا مع الاتحـــاد السوفييتي راجع في الاساس الى اختلاف زاوية الرؤية · ومثل هذا التناقض لا يجب أن يثير انزعاجنا · وعلينا أن نعالجه بحكمة ·





(محمد حسنين هيكل)

ـ ما الذي كان يضايق عبد الناصر من الاتحاد السوفيتي ؟

ـ متى ناقش بريجينيف مسائل داخلية مع السادات ؟

ـ الاتحاد السوفيتي هو الصديق الاول ، وليس له بديل ٠

ـ التوازن لا يعني التسوية بين العدو والصديق ٠

ـ الحملة ضد الاتحاد السوفيتي بعد اكتوبر غير مفهومة وغير منطقية ٠

ـ اليمين المتخلف (عربيا ومصريا) هو الذي يغذي الحملة ضد الاتحاد السوفيتي ٠

محمد حسنين هيكـل

واحد من ابرز الصحفيين والكتاب السياسيين في منطقتنا ، ان لم يكـن ابرزهم · وهو سياسي بارع ، وان كان قد لعب ويلعب أهم واخطــر ادواره في الظل ودون ضجيج ·

··· من فرط اجادته لمهنة الصحافة ولعبة السياسة ، لا تعرف ايهما يهوى وايهما يحترف !

··· رغم ظروفه ، في بداياته المبكرة ، وضعته في قلب مدرسة الاثـارة الصحفية ·· الا انه ، لذكائه وقدراته الشخصية وثقافته ، عبر البحر دون ان يبتل ·· أو بأقل خسائر ممكنة ··!!

قلنا للاستاذ محمد حسنين هيكل : لقد كنت في قلب الاحداث عند قيـام الثورة ·· لماذا في رايك بدأت الثورة بمحاولة ايجاد علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الاميركية وانتهت بالعكس تماما ·· اي بانشاء علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتي ؟

قال محمد حسنين هيكل :

لمعرفة الاسباب التي دفعت الثورة المصرية الى محاولة اقامـــة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة الامريكية ، لا بد ان نتتبع الظروف التاريخية التي قامت فيها ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ·

ومن الناحية الدولية نجد امامنا في ذلك الوقت ثـــلاث قوى :

الاولى تمثل الاستعمار التقليدي (بريطانيا وفرنسا) والثانية هـــي الولايات المتحدة الاميركية كقوة صاعدة بعد الحرب العالمية الثانيـة (حققت الانتصار الاكبر في الحـــرب وتمـــلك القنبلـــتين الذرية والهيدروجينية) ، والثالثة هي الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين ، حيث اتصالاته بالاخرين واتصال الاخرين به محدود ٠

كانت الثورة في تناقض طبيعي مـع عدوهـــا الاساسي وهـو بريطانيا التي تحتل جزءا من مصـــر ٠ وكـــانت الولايات المتحـدة الاميركية في تناقض ظاهر مع بريطانيا ٠ صحيح انه لم يكن تناقضا اساسيا لكنه تناقض على اي حال ٠ ولعبت الصـــورة الــتي قدمتها وسائل الاعلام المختلفة وعلىرأسها السينما الاميركية دورا هاما داخل كل بيت مصري لاقناع الجميع بالصورة المشرفة للولايات المتحـــدة الاميركية والرجل الاميركي واسلوب الحياة الاميركي ٠

وقامت الثورة واستولت على السلطة في مصر ٠ ومنذ الساعات الاولى اهتمت بان تبلغسفارات الـــدول الكبرى ، مـــا عدا الاتحاد السوفييتي ، بان الحركة الجديدة لا تستهدف الاضرار بمصالح أحد٠

لكن التركيز أو الاهتمام الرئيسي انصب على الاتصال بالسفير الاميركي ، اذ طلب الى علي صبري ان يذهب لابلاغه بما حدث لكنـه لم يجد السفير وابلغ الرسالة للملحق الجوي في السفارة الاميركية ٠

كان هناك تصور ما بانه من الممكن الاعتماد عـــلى الولايـات المتحدة الاميركية في مواجهة الانكلـــيز ٠ وفـــي نفس الوقت كان الاميركيون قريبين من الملك ، لان الاخير حاول ان يلعب نفس اللعبـة بسبب بعض مشاكله مع الانكليز ٠ وممـا يؤكد ذلـــك ان الملك طلب حضور السفير الاميركي يوم ٢٦ يوليو (تموز) ليحضر عملية تنازلـه عن العرش ويضمن خروجه من مصر بسلام ٠

لكن الاميركيين كالعادة اخطأوا في فهم ما حدث في مصر ، وتصوروا انه حدث تقليدي ، بل واستخفوا به ايضا !

- بعض المصادر الاميركية تزعم ان الولايات المتحدة كانت تقيم صلة ما بتنظيم الضباط الاحرار قبل الثورة ؟

قال محمد حسنين هيكل :

هذا غير صحيح ·· لم يحدث مطلقا · ان حركة الضباط الاحرار لم تكن حزبا ، وكانت حركة سرية تماما · ولو انها اتصلت بأي جهة اجنبية لامكن ضربها بسهولة قبل قيام الثورة ·

لكن الاتصال الذي ذكرته بسفارات اميركا وبريطانيا وفرنسا بعد قيام الثورة مباشرة صدر بدافع التشكك والخوف من موقف القوات البريطانية في منطقة القناة ، ومن احتمال ان تسمح بمرور الفرقة المصرية المدرعة المرابطة في رفح (وموقفها لم يكن واضحا تماما ليلة الثورة، اذا استنجد بها الملك او أعوانه · ولذلك فقد اتصلت قيادة الثورة باللواء شوقي عبد الرحمن في القيادة الشرقية في منطقة القناة ، لمعرفة نوايا القوات البريطانية · وعندما أكد اللواء شوقي عبد الرحمن ان القيادة البريطانية ليست لديها فكرة عما يجري في القاهرة وليست لديها بالتالي اي تعليمات ·· استقر الرأي على ضرورة ابلاغ سفارات بريطانيا وفرنسا واميركا بما حدث تجنبا لردود الفعل التي قد تنشأ عن أخطاء في التصور أو المعلومات ·

لكن في كل الاحوال لم يكن هناك اي اتصالات مسبقة بين قيادة الثورة وبين اي جهات اجنبية ·

اما ما يقوله مايلز كوبلاند في كتاب «لعبة الامم» ، وقد سبق ان تناولته في مقال لي ، فهو غير صحيح بالمرة · ولم يكن كوبلاند في مصر عند قيام الثورة · لكنه جاء بعدها مع كيرميت روزفلت · وكان الاخير يتردد على مصر قبل الثورة للاتصال بالملك وكريم ثابت ·

ومن المهم هنا ان نذكر ان كوبلاند ، باعترافه ، هو احد عملاء المخابرات الاميركية ، ولا يمكن ان يعلن شيئا دون موافقة المخابرات الاميركية ، ولخدمتها . وقد طلب كوبلاند في اكثر من اربعين رسالة الى السلطات المصرية ان يعمل في خدمتها .. ولكن طلباته رفضت دون تردد .

فزع اميركي

ـ هل يعني ذلك ان المخابرات الاجنبية لم تكن على علم بوجود حركة في الجيش المصري ؟

قال محمد حسنين هيكل :

كانت هناك معلومات لدى المخابرات الاجنبية لكن لم يكن لديهم تصور عن طبيعة ما سيحدث او حقيقة القائمين على الحركة .

وكانوا على درجة كبيرة من الاطمئنان ان الحركة في مجموعها ليست معادية للغرب . ومن هنا جاء التصور لدى البعض بان اتجاه الحركة «اميركي» .

لكن بعد ايام من قيام الثورة ، عندما عرفت اسماء اعضاء مجلس القيادة حدث نوع من الفزع لدى الاميركيين بسبب وجود شخصيات مثل خالد محي الدين ويوسف صديق بين اعضاء المجلس . اذ لم يكن من الصعب معرفة اتجاهاتهم السياسية ، سواء عن طريق «القلم السياسي» القديم او جهات اخرى تتبادل المعلومات والسجلات حول هذه الامور .

اذن فالفكرة العامة المسبقة لم تكن تؤدي الى الاعتقاد بان الثورة معادية للغرب . لكن ظهور اسماء معينة ضمن مجلس قيادة الثورة بعد ٢٣ يوليو (تموز) اثار مخاوف لدى الغرب . ومن هنا كانت اهمية طمأنة الدول الغربية الكبرى حول الاتجاه العام للحركة .

... ثم بدأ الاختبار الاول لنوايا الولايات المتحدة الاميركية .

كان موضوع السلاح يلعب دورا هاما الى جوار مسائل اخرى ٠ لقـــــد قامت الثورة من بين صفوف الجيش وأحد مبرراتهـا مسألـــة التسليح والهزيمة في فلسطين ٠ ومن أين نأتي بالسلاح ما دام الانكليز يرفضــون بالقطـــع ٠

هنا تدخل الاميركيون وقالوا انهم يستطيعون تزويد مصر بالسلاح ٠ وجاء الى القاهرة وليم فوستر وكيل وزارة الدفاع الاميركيـــة ، حـيث كان يقوم بجولة في المنطقة ، والتقى في عشاء على مائدة السفير الاميركي كافري بعبد الناصر ومحمد نجيب وغيرهما من اعضاء مجلس قيـــادة الثورة لبحث هذه الامور ٠

وكان الاتصال بالولايات المتحدة من أجل الاسلحة يبـدو طبيعيا ، خاصة وان مصر وقعت اتفاقا في اواخر عهد الملك للحصول على اسلحة خفيفة بهدف استخدامها في عمليات الامن الداخلي ٠ وكان علي مـاهـر (اول رئيس وزراء بعد الثورة) هو الذي سبق ان تفاوض مع الاميركيين حول تلك الصفقة ٠

ولذلك فعندما ابدى الاميركيون استعدادا لتزويد مصـــر بالسلاح وطلبوا اعداد قوائم بالاسلحة التي نريدها ، لم تتردد قيادة الثورة في عرض تلك القوائم على وليم فوستر بعد ذلك العشاء الذي اقامه السفيـر كافري ٠ وكانت القوائم المصرية تتضمن تسليح فرقة مدرعة وثلاثة اسراب من الطائرات وبعض الاسلحة الاخرى ٠ وابدى وليم فوستر موافقته على اساس ان تكون مقابل تصدير القطن وعلى اقساط ٠ كما اتفق عـلى ان تسافر بعثة مصرية للاشراف على التنفيذ ٠ وسافر علي صبري بالفعـل بعد اسبوعين من هذا الاتفاق ٠

علي صبري في واشنطن

وقد حدث ان كنت ازور الولايات المتحدة الاميركية في نفس الوقت والتقيت بالجنرال اولمستد المشرف على برامج المساعـــدات الخارجيـة

العسكرية ، حيث خرجت بانطباع محدد ، ذكرته هنا فيما بعد ، وهو ان الاميركيين يفكرون بطريقة مخالفة تماما لما نقصد اليه · فقد كان اهتمام الجنرال الاميركي اساسا هو ملء المنطقة الواقعة بيننا وبين باكستان بقواعد عسكرية اميركية لتصبح مثل مناطق الباسفيك وجنوب شرقي اسيا كما بين لي على خريطة ازاح عنها الستار في مكتبه ·

وفي نفس الوقت كان القلق يسود الاوساط المصرية حول مشكلة التسليح،واكتشف عبد الناصر ان الامريكيين لا يقصدون سوى المراوغة· وقد تعللوا بعد عودة البعثة المصرية دون اي نتيجة ، بان ادارة الرئيس ترومان توشك ان تنتهي ، وان ايزنهاور سيجد اول توصية على مكتبه بخصوص تسليح مصر · ثم تعللت ادارة ايزنهاور بان تشرشل طلب من الرئيس ايزنهاور الا يبدأ رئاسته بتقديمالسلاح الذي سيقتل به المصريون جنود بريطانيا ، الذين حاربوا تحت قيادة ايزنهاور اثناء الحرب العالمية الثانية ·

وظل الموضوع تحت الاخذ والرد الى ان جاء جون فوستر دالاس وزير الخارجية الاميركية بعد حوالي عامين الى مصر ، وطلب من عبد الناصر الانضمام الى حلف عسكري ضد ما اسماه بالخطر السوفييتي · ورفض عبد الناصر ان يحارب خطرا موهوما على بعد خمسة الاف ميل من حدودنا ، ويتجاهل الخطر الحقيقي الذي تتعرض له مصر سواء من الاحتلال البريطاني او من اسرائيل · ثم تتابعت بقية الاحداث المعروفة وما تخللتها من ضغوط ، ازدادت تعقيدا بموضوع حلف بغداد · وتبين بشكل نهائي انهم لن يقدموا شيئا · لكنهم طلبوا ان تجرب مصر معهم مسألة المساعدات الاقتصادية ، على اساس لا ترتبط بتعقيدات التسليح المعروفة · وعقدت مصر معهم صفقة قمح محدودة وبعض الشحومات · لكنهم لم يكونوا على استعداد لتقديم اي معونة تتعلق بالتصنيع ·

ومن هنا اصبح موقف الاميركيين واضحا تماما ازاء اهم مشكلتين تواجهان مصر والثورة وهما قضية التنمية الحقيقية وقضية التسليح ·

ـ فاين من هذا كله علاقتنا بالاتحاد السوفييتي ؟

كان هناك نوع من سوء التفاهم في ذلك الوقت بيننا وبين الاتحاد السوفياتي · فقد كان ينظر الى ما حدث في مصر في يوليو ـ تموز ـ سنة ١٩٥٢ بمنظار تقليدي · ثم ازدادت شكوكه بما رآه من اتصالات بين مصر والولايات المتحدة الاميركية · واظن انه حتى ذلك الوقت كان الاتحاد السوفياتي يعتقد ان موقف مصر المعادي لحلف بغداد ربما لم يتجاوز الخلاف بين القاهرة وبغداد على الزعامة في اطار الصلة بالغرب ·

عبد الناصر والاتحاد السوفيتي

ـ ماذا كان تصور عبد الناصر للاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت ؟

قال محمد حسنين هيكل :

لا بد ان نقر ان عبد الناصر لم يكن متعاطفا مع الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت · وكان موقفه محكوما بعدة عوامل : منها الصورة التقليدية المنعكسة عن الاتحاد السوفيتي ابان فترة انغلاقه عن العالم · ومنها خلافات ستالين مع تيتو · ومنها بعض الامور المتعلقة بالدين والقومية ، الى جانب ما اثير من نقد سوفياتي ضد «الانقلاب» في مصر·

ـ متى تغيرت هذه الصورة ؟

ـ بعد فشل التجربة مع الاميركيين في اواخر ١٩٥٣ واوائل ١٩٥٤ اصبح الطرفان (مصر والاتحاد السوفيتي) في موقف من يريد اعادة النظر والاستعداد لان يسمع كلمة طيبة فيحق الاخر · وفي عام ١٩٥٤ اتخذت مقاومة عبد الناصر للاحلاف الاستعمارية شكلا سافرا ، وادرك الاتحاد السوفيتي ان الصراع ليس تقليديا حول الزعامة بين القاهرة وبغداد · وكان عام ١٩٥٤ هو فترة المراجعات الاساسية للمواقف رغم ما حدث في اخره من سوء تفاهم مع الاتحاد السوفيتي حول النص الخاص بتركيا في المعاهدة المصرية ـ الانجليزية · ومع بداية ١٩٥٥ شدد الاميركيون والبريطانيون من ضغوطهم لمنع عبد الناصرمن الذهاب

الى باندونج • وبذلوا في ذلك محاولات غاية فـــي الشراسة الى حد استخدام اسلوب التخويف ،ومحاولة اقناع عبد الناصر بانه معــرض للاغتيال هناك ، لكن عبد الناصر كان مصمما على الدخول في المعركة حتى نهايتها • وكانت المشاكل قد بدأت تتراكم : مشكلة الاحلاف ومــا يتعرض له من ضغوط بسببها ، مشكلة ارتباطــه بالحركــة الاسيويــة الافريقية ، مشكلة توجس البريطانيين من ان عبد الناصر قبل وجـــود قاعدة بريطانية في المعاهدة المصرية الانجليزيـــة كمسالـــة مؤقتة او كمناورة ، ثم المشاكل الداخلية الاقتصادية والاجتماعية التي بدأت تنشأ الى جانب مشكلة التسليح التي كانت هي الخيط الرئيسي المستمر في كل الظروف ، خاصة بعد الغارة الاسرائيلية على غزة • فقد كـــانت هذه الغارة نقطة التحول في تفكير عبد الناصر كما ذكرنا مرارا • والحقيقة انه كان هناك خلاف في مجلس الثورة قبـل هـــذه الغارة حول ترتيب الاولويات • وكان عبد الناصر يرى ان مسألة التنمية الاقتصادية هي الاهم ثم بعد ذلك مسالة الجيش • ولذلك فقد خفضت ميزانيـــة الجيش بعد الثورة بمقدار خمسة ملايين جنيه • لكن الموقف تغير نهائيا بعـــد الغارة وقال عبد الناصر يومئذ ان موضوع السلاح هو الاهم ، والا فان كل ما سنبنيه داخل بلادنا سيكون تحت رحمة اسرائيل •

ومع بداية التحسن في العلاقات بدأ يفكر في الاتحاد السوفييتي من زاوية التسليح ، وان لم يكن على ثقة تامة بان الاتحــاد السوفيتي يمكن ان يقبل • وعندما التقى عبد الناصر بالسفير السوفيتي سولود في حفل بالسفارة السودانية وجاء الحديث عرضا عن الاحوال مع الاميركان وغارة غزة ، سأله عبد الناصر عن امكانية الحصول على اسلحـــــة سوفياتية ، فاجاب السفير بانه سيبلغ موسكو بذلك •

وسافر بعدها عبد الناصر الى باندونج ، حيث التقى في بورما مع شو ان لاي وشرح له ما تعاني منه مصر من حصار اقتصـــادي بسبب موقفها من الاحلاف • وذكر عبد الناصر امام شو ان لاي الحديث الذي جرى في القاهرة مع السفير السوفيتي وسأله عن الاستعداد السوفيتي للموافقة على هذا الطلب• وقد اجاب شو ان لاي بانه يتصور ان يوافق

الاتحاد السوفيتي ، وطلب ان يترك له عبد الناصر هذا الموضوع ليطرحه على السوفييت بنفسه · وبعد فترة قصيرة من عودة عبد الناصر الى القاهرة تلقى من شو ان لاي ما يفيد موافقة السوفييت · وابلغ السفير السوفياتي سولود) الرئيس عبد الناصر بان القيادة السوفياتية بحثت الموضوع ووافقت على مد مصر بالسلاح على ان تكون طلبات مصر واقعية · ولفت سولود نظر عبد الناصر الى انه يمكن ان تتداخل عناصر دولية في هذه المسألة · ثم مرت فترة تردد خلال التحضير لعقد مؤتمر الاربعة الكبار في جنيف ، واقترح السوفيات بعدها ان تتم الصفقة باسم تشيكوسلوفاكيا ·

وهنا بدأ عبد الناصر يخشى من اتمام الصفقة ، كان قلقا الى أقصى الحدود ، فاستدعى السفير الاميركي بايرود قبل نقله من القاهرة ، وابلغه ان لديه عرضا من السوفييت بالتسليح · لكن بايرود لم يأخذ الامر بجدية · وعندما التقى عبد الناصر بعد ذلك بالسفير البريطاني ستيفنسون ، ابلغه الاخير انه سمع من بايرود عن صفقة الاسلحة ، وانه ينصح بشدة الا تتم · وهنا تأكد عبد الناصر ان الغرب لديه احساس حقيقي بأن الصفقة ستتم ، وبدأ يشعر بالاطمئنان · ومن ثم عاود الاتصال بالسوفييت واتخذت الاجراءات للتنفيذ ·

– يقول مايلز كوبلاند انه هو الذي اقترح مع كيرمت روزفلت على عبد الناصر ان تسمى صفقة الاسلحة التشيكوسلوفاكية ·· وانهم كانوا على علم بها ولم يعترضوا ؟

قال محمد حسنين هيكل : هذا كلام مضحك ··!

ثم واصل حديثه :

لقد توترت العلاقات بين مصر واميركا عندما عرف الاميركيون بصفقة الاسلحة وكان اول من عرف احد رجال السفارة الاميركية ويدعى ايكل برجو ·

ـ كيف عرف ؟

ـ ليس من المهم كيف عرف ! ولكن برجو فقد اعصابه لــــدى معرفته بالنبأ ، واتصل بالدكتور احمد حسين وبي • واذكر ان كلامه معي كان يتسم بالتهديد ، وقال أنها مسالة في غاية الخطورة • ثـم وصل كيرميت روزفلت والتقى بأحمد حسين وبي • وكانت الرسالة التي حملها تتضمن ان اميركا ستقطع كل علاقة اقتصادية اذا لم تلغ الصفقة ومن الممكن ايضا ان تقطع علاقاتها السياسيـــة ، وان يقوم الاسطول الاميركي بفرض حصار على الشواطىء المصرية لمنع وصول الاسلحة !!••

وبقية القصة معروفة ••• الى أن ثبت الفشل النهائي للاختبار الاميركي واستنفذ حتى نهايته • وبدأت العلاقات المصرية السوفياتية تأخذ طريقها •••

ـ كبديل للعلاقات المصرية الاميركية ؟

قال محمد حسنين هيكل :

ظهر ان الولايات المتحدة الاميركية لا تستطيع ان تفي بحاجات مصر الاساسية وهي مقتضيات التنمية الاقتصاديـــة والاجتماعية ، ومقتضيات الامن الوطني ، فمن ناحية ليس هناك حل لمشاكلنا الداخلية الا التنمية الاقتصادية ، ومن ناحية اخرى لا حــــل لقضية الامن الخارجي ومواجهة التهديد الاسرائيلي الا بضمان نظام للتسليح ، وفي هاتين المسألتين لم يقدم الاميركيون شيئا ، وليسوا على استعداد لان يقدموا شيئا •

وبدأ فصل جديد في العلاقات المصرية السوفياتية •

ـ ما هي الاسباب التي دفعت السوفيات بشكل محدد الى التعاون مـــع مصـــــر ؟

قال محمد حسنين هيكل :

لقد بدأ السوفيات يغيرون رأيهم في طبيعة النظام المصـــري · اولا من حيث عداؤه للاستعمار ، وثانيا من حيث تأثيره في المنطقة العربية · وقد كان ما جرى لسلوين لويد وزير خارجية بريطانيا يومئذ في عدن ، ثم طرد الجنرال جلوب من الاردن مثيرا للانتباه ، وفـــي ذلك الوقت كان موضوع السد العالي مطـــــــروحا للبحث ، واراد الاميركيون ان يدخلوا مرة اخرى الى مسألة السلاح عن طريق السد العالي · ولعلنا لم ننس ان سحب عرض تمويل السد العالـــي كان نتيجة لمسألة السلاح · وبهذه المناسبة فقد كان رأي الاميركيين الفني والعلمي هو ان مشروع السد العالي مشروع سليم مائة في المائـــة وضروري للاقتصاد والزراعة المصرية ومربح ايضا ··!

لكن عندما رفض عبد الناصر ان يوقف صفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفياتي سحب الاميركيون عرضهم لتمويل السد العالي ·

وفوجيء الاتحاد السوفياتي بتأميم مصر لشركة قناة السويس، ثم تبعتها حرب السويس او العدوان الثلاثي · وهو الذي عمق بصورة نهائية مقاومة مصر للاستعمار ، كما حدد تأييد الاتحاد السوفياتي لمصر بطريقة واضحة · لقد كانت حرب السويس هـــي كشف الغطاء الاجتماعي عن الحقيقة المصرية ·

ـ كيـــف ؟

ـ كان عبد الناصر يتساءل من يملك مصر ؟ وذلك عندما قيل له ان البنوك لا تقوم بعمليات التمويل (بما فيها بنك مصر) وانها تحبس أموالها عن المشروعات · ولم يستطع احد ان يقدم ردا شافيا الى أن

أممت قناة السويس ٠ لقد اتضحت مـــــن دراسة حسابات الشركة ووثائقها طبيعة العلاقة القائمة بينها وبين البنوك ٠ ثم اتضحت حقائق جديدة عند تمصير المصالح الانجليزية والفرنسية والبلجيكية وغيرها٠ لقد ثبت ان شركة واحدة بريطانية (براد فورد) كانت تملك ٥ر٣٧ بالمئة من اسهم شركة كفر الدوار ولذلك تقـــرر تأمينها بعد شهر مـــن تمصيرها وانشىء اول قطاع عام في مصر ٠ وهكذا نجـد ان حـرب السويس كشفت عن الحقيقة الاجتماعية في مصر ٠

واصبح الموقف بعد الحرب وقرارات التأميم وتصفية القاعـدة البريطانية :

٠٠عداء واضح للاستعمار والاحلاف العسكرية ٠

٠٠ علاقات واضحة مع الاتحاد السوفياتي بعد صفقة الاسلحة والسد العالي ٠

٠٠ اتجاه اجتماعي يزداد وضوحا ٠

وبهذا نستطيع ان نقول ان عام ١٩٥٧ تميز بالتفهم العميق مع الاتحاد السوفياتي ٠ ولقد بدا ذلك واضحا من الاهتمام الشديد والود العميق الذي عومل به الوفد المصري الذي حضر احتفـــالات العيد الاربعين للثورة الروسية ٠ واعتقد ان الازمة الطارئة عام ٥٨ ــ ٥٩ لم تؤثر على العلاقات المصرية السوفياتية بسبب البناء المتين الـــذي تحقق في الاعوام الثلاثة السابقة ٠

لا مناقشة داخلية

– هل حاول السوفيات مناقشة اوضاع داخلية ، او التاثير على تفكير القيادة السياسية ؟

قال محمد حسنين هيكل :

أنني اذكر دائما ان السوفيات كانوا في غاية الحرص في احاديثهم عن تجربتهم · وهم يتركونك لتكشف ما تريد ان تكشفه · انهم لا يناقشون الاوضاع الداخلية في العالم العربي الا نادرا وعندما تحدث ظروف ملحة تدعو الى ذلك · واذكر ايضا انهم لم يتحدثوا الى الرئيس السادات في مراحل لاحقة عن القوي الداخلية او الحملة التي تشن ضدهم احيانا ، الا عندما فتح الرئيس السادات موضوع السلاح والعناصر التي تحاول استغلال النقص في الاسلحة ضد العلاقات المصرية السوفياتية · وعندئذ تحدث بريجنيف قائلا انه يسمح لنفسه الان بمناقشة الموضوع بعد ان طرحه الرئيس السادات ، ويرجو الا يعد ذلك تدخلا في الشؤون الداخلية ·

لكن من ناحية اخرى لا شك ان التجربة السوفياتية تلفت نظر القادة الى أمور هامة · اذكر مثلا عندما زار عبد الناصر الاتحاد السوفياتي بعد الوحدة مع سوريا ، ان كنا في طائرة نفاثة سوفياتية ودار الحديث عن ان التجربة السوفياتية تستحق الاهتمام لما تم فيها من انجازات ضخمة ، سواء ما يحدث في سيبيريا او كازاخستان او اسيا السوفياتية عموما · وكيف انه خلال اربعين عاما تحولت من دولة متخلفة الى التقدم على الولايات المتحدة في رحلات الفضاء، الخ

- كيف كان عبد الناصر يقيم الاتحاد السوفياتي بعد تطور العلاقات المصرية السوفياتية ؟

قال محمد حسنين هيكل :

رغم ان الاتحاد السوفياتي قد يكون «متعبا» في اسلوب التعامل ، لكن عبد الناصر كان يعتقد ان الاتحاد السوفياتي سيعطى في النهاية ما هو لازم لتحقيق اهدافنا · وهذه حقيقة كان يؤمن بها عبد الناصر كاحدى المسلمات · كان يعرف ان الاتحاد السوفياتي سيعطيه سلاحا لكي يحارب · لكنه يعتقد ان هناك اجراءات معينة وعوائق معينة لا بد ان يجتازها اولا :

مثلا ·· الاتحاد السوفياتي يهمه جدا الرأي العام العالمي ، ولا بد ان يكون الرأي العام العالمي ، مهيأ لشيء معين قبـــل ان يتصرف الاتحاد السوفياتي ·

ثانيا : يهتم الاتحاد السوفياتي بألا يكون دوره موضوع فهـم خاطيء على الاقل من جانب الشعوب المعنية بالامر ، فليس دوره هو مجرد ان يأتي للمساعدة ولكن يجب ان يكون مفهوما لماذا يجيء، وان يكون مطلوبا بالحاح لكي يجيء · ولذلك يهتم بان يكون الرأي العام في المنطقة وفي بلادك مهيأ ، حتى يكون دوره مفهوما ·

ثالثا : ان يعطى الاتحاد السوفياتي الوسائل التي يمكن ان تساعده على نجدتك اذا كان ذلك ضروريا · مثل تسهيلات لسفنه في البحر الابيض ··· وما الى ذلك ·

والمسألة الاخرى ان السوفيات لهم اسلوبهم وعقليتهم الخاصة بهم · وهم يحللون الامور كثيرا ولديهم أجهزة متعددة تقـوم بعمليـات التحليل الىحد انه قد يبدو على السطح انها اجهزة بيروقراطية ومعقدة· ومعقدة · وثمة مسألة اخرى تستشعرها عند الحديث الى القـــادة السوفيات · فهم يثقون في تيار التاريخ بصفة عـــــامة ونهائية ، ويضعونه في اعتبارهم قبل أي اعتبار اخر تكتيكي · ولعل هذا الامـر كان يسبب بعض الضيق لدى عبد الناصر والقادة العرب احيانا · فقد كان عبد الناصر متضايقا بعد ١٩٦٧ وكذلك بومدين وقبل ذلك بن بيللا وغيرهم · فالاتحاد السوفياتي يضع ثلاثة اعتبارات تحكـم نظرته للامور وهي : موقفك وموقفه والنظرة التاريخية ومـــداها · واحيانا تلتقي هذه الاعتبارات مع وجهة نظر القادة الاخرين او يحدث تناقض ·

سوء الفهم

ـ اذا كانت هذه الامور واضحة فما هي اذن اسباب سوء التفاهم والازمات التي تنشا من وقت لاخر ؟

قال محمد حسنين هيكل :

أولا لا بد ان تضع في الاعتبار التمزق بين احساسك بالحاجة العاجلة والماسة وبين التأخير الذي يحدث احيانا في تلبية هذه الحاجات ، حتى ان كنت تعرف انك ستحصل على ما تريد في النهاية· هنا تناقض لا يمكن اغفاله · ثم هناك ايضا احساس بأن السوفيات ليسوا واضحين في التعبير عن أنفسهم بما فيه الكفاية · واعتقد انه لولا ان خط عبد الناصر كان واضحا وثابتا ، وكان يعرف ماذا يريد لكان من الصعب عليه ان يكتشف ماذا يريد السوفيات · المسألة الاخرى الهامة هي اننا لا بد ان نلاحظ ان العلاقات المصرية السوفياتية تعرضت لحملات غاية في التركيز من عناصر خارج وداخل المنطقة ، وهذه الحملات تلعب دورا في التشويش على العلاقات والاساءة اليها دون شك ·

ـ لكن اليس هناك تشخيص سليم من جانبنا ومن جانب الاتحاد السوفياتي لنوع العلاقات التي نقيمها ؟

قال محمد حسنين هيكل :

من الامور التي كنت اعترض عليها دائما في العلاقات المصرية السوفياتية انه لم يحدث الا مرات قليلة وعلى مستوى القمة فقط ان ناقشنا ما هو ابعد من مطالبنا العاجلة ، فيما عدا استثناءات محددة · وعادة تبدأ الاجتماعات المشتركة بعرض للموقف العالمي من جانب السوفيات والموقف في الشرق الاوسط من جانبنا ، وعرض لتطورات الاحداث الجارية ثم الدخول في المطالب الاقتصادية والعسكرية ، ولم يحدث الا نادرا ان خصصت جلسات لمناقشات تكاد ان تكون فلسفية او فكرية ·

وهذا ما كنت انادي به · ان نتحاور ونتناقش لكي لا تقتصر العلاقات على مجرد الضرورة او الحاجة العملية ·

هناك احساس عام ومبهم احيانا لدى الطرفين باستراتيجية العلاقات المصرية السوفياتية · لكن هناك قصورا من الجانبين لوضعها بالتفهم الحقيقي في الموضع الاستراتيجي · اي ان استكشاف الابعاد الاستراتيجية للعلاقات لا يحدث من جانب الطرفين بدرجة كافية ·

لقد حدث ذلك كما قلت مرات قليلة منها عندما ناقشنا مع خروشوف في السفينة «الحرية» في البحر الاحمر عام ١٩٦٤ المسائل الخاصة باتجاهات القومية العربية · وكان حاضرا مع عبد الناصر بن بيللا وعبد السلام عارف · وحتى تلك المناقشة لم تكن مقررة ولكنها فتحت بشكل معين · واعتقد رغم لحظات الحدة التي مرت بالمناقشة انها كانت من أهم المناقشات لان كل طرف يستكشف ما لدى الطرف الاخر من افكار ·

لا يكفي ان يكون هناك احساس عام باستراتيجية العلاقة · لانه قد يحدث ان تكتشف بالمناقشة ان ما تتصوره قائما غير موجود في الواقع ، او تتصور ان ما هو غير قائم في الواقع موجود في المناقشة·

أما المسألة التي تسبب من جانبنا ارهاقا للسوفيات ، وهي احد المفاتيح الاساسية ، فهي قضية الصراع العربي الاسرائيلي · فالسوفيات يحسون ان هذه القضية تأخذ من وقتنا اكثر بكثير مما يجب ومما يقتضي الامر ومما تساوي · وفضلا عن ذلك هم يحسون ان هناك نوعا من الغموض لدينا فيما يتعلق بموقفنا من مسألة الصراع العربي الاسرائيلي · وقد سأل السوفيات جميع الاطراف العربية التي يتصلون بها عن أهدافهم بالتحديد في هذه القضية لكنهم تلقوا اجابات مختلفة وغير محددة · ونحن فعلا بشكل عام ليس لنا تصور محدد للصراع العربي الاسرائيلي وكيف يحل في النهاية ·

وقد اثر تصور السوفيات لغموض العرب في هدفهم النضالي على موقف السوفيات تأثيرا محسوسا · وبالنسبة لهم لا يتصورون الامور

بهذا الغموض · فاذا اردت ان تناقش قضية توحيد المانيا ، فقـــد لا تخرج المناقشة مثلا عن انك تريد توحيد المانيا ··· لكن بما ان ذلك غير ممكن حاليا فمن الممكن ان تصل الى أهداف معينة هي كذا · · وكذا ·· الخ · وكذلك الوضع بالنسبة لاي مشكلة ·

ويمكن بنفس الدرجة ان نطبق هذا علـــــــى بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي تمر بمصر وقد لا تكون مفهومة تمامـــا من السوفيات ·

ومن مشاكل العلاقات المصرية السوفياتية دائما انها علاقات على مستوى القمة فقط، سواء في عهد عبد الناصر او في عهد السادات·وفي ما عدا ذلك تتم العلاقات في أضيق الحدود باكثر الاشكال رسمية · كأن العلاقات العربية السوفياتية بكل اهميتها هـــرم مقلوب ، يرتكـــز على قمته · ولذلك فنحن في حاجة الى أن نعيد وضع الهـرم بشكل طبيعي ، اي ان تصبح علاقات القمة تتويجا حقيقيا لاتصالات واسعة وبناء كامل ·

لكن هذا لا يعني ان العلاقات على مستوى القاعدة لا تعترضها مشاكل من جانبنا أو من جانبهم · مثلا : كل الوفود او اغلب الوفود التي ذهبت من مصر الى الاتحاد السوفياتي فشلت في رؤية الحقيقة السوفياتية ·انهم لم يدركوا انهم في مجتمع لا طبقي بالفعل ، ومجتمع كهذا يجب ان تنظر اليه نظرة شاملة ، لكـــي تحس مـــاذا حققوا مـــن مستويات في التعليم والصحة والنظافة والمسكن والاستهلاك لكـــل الناس · فاذا لم تفهم ذلك كما يحدث من بعض وفودنا فستقول ان لدينا في مصر سيارات اكثر (بنسبة عددنا الى السوفيات) · واذكر انني سمعت بهذه الملاحظات من اناس مسؤولين لا يفرقون بين وضعهم كاناس محظوظين في المجتمع المصري وبين عامة المصريين ·

البعض يتحدث عن سياراتنا وسياراتهم ، والبعض يلاحظ اننا نرتدي ملابس افخم من ملابسهم · لكنهم لا يقارنون مثلا بين الفلاح او العامل المصري وبين الفلاح او العامل السوفياتي · لا يقارنون بين

المستوى العام للشعوب السوفياتية والمستوى العام للشعب المصري··
ولكي ندرك ما حققه المجتمع السوفياتي لا بد ان يكون المقياس هو وضع المواطن العادي هناك وفي غيره من البلاد · ثم ان نقارن ما حققه بالنسبة لما كان عليه قبل الثورة · بل حتى قياسا على اوروبا فان السوفيات خطوا خطوات واسعة ·

ثم هناك العوائق الاخرى ، كأن ندير العلاقات بيننا في جـو مغلق خشية اثارة حساسيات لدى هذا الطرف او ذاك · واذا اضفنا الى ذلك حاجز اللغة والحديث عن طريق مترجمين في اعقد الامـور الفنية والاقتصادية والعسكرية ، ادركنا مدى الصعوبات التي يجب ان نواجهها من أجل تفاهم اكبر وتفهم متبادل ·

ان الخطب لا تزال اكثر لدى الجانبين من التبادل الحقيقـي لوجهات النظر · والتزاور بين السوفيات والمصريين يكاد ان يكون منعدما وليس من اليسير حتى الان ان نتبادل حديثا صريحا مـع سوفياتي الا في حدود معينة وهذه صعاب لا بـد ان يتغلب عليها الطرفان على اي مستوى وبكل وسيلة ·

ـ اذا كانت هناك بعض المشاكل الحقيقية بين مصر والاتحاد السوفياتي بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) ، هل ترى مبررا للحملات التي شنتها عناصر معينة ضد العلاقة مع الاتحاد السوفياتي ؟

قال محمد حسنين هيكل :

مسألة الحملة على الاتحاد السوفياتي بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) غير مفهومة على الاطلاق · وأنا اعتقد اننا حققنا اشياء عظيمة وهامة في حرب أكتوبر بلا جدال · وهناك عنصران حققنا بهما مـا حققناه :

الرجل والسلاح ، ايا كانت الوسيلة التي حققناه بها · اذن فقد حققنا بالسلاح السوفياتي انجازا عظيما · ولم نستخدم الى مـا بعد ثمانية ايام من العبور الا السلاح السوفياتي اساسا · ومن هنا لا يعقل ان نمجد اكتوبر (تشرين الاول) وننتقص من قيمة ما قدمه السوفيات لنا في حرب اكتوبر · هذا غير منطقي وغير واقعي !!

واعتقد ان جزءا هاما من تلك الحملة قامت به عناصر يمينيــة عربية وليست مصرية فقط · وهي العناصر التي ترتكز علـــى أجنحة متخلفة وغبية من اليمين المصري والعربي · وليس هناك نمــوذج يبين مدى سخف الحملة على الاتحاد السوفياتي اكثر من نموذج الحملة ضد السد العالي ·

فقد نسبت كل المشاكل فجأة الى السد العالي ، بمـــا فيها تلوث المياه في القاهرة · مع ان السد العالي هو المشروع الوحيد في العالم الذي «قتله» الغرب والشرق بحثا من الناحية الفنية والهندسية · فبعد ان درسه الغرب ووصفه بانه مشروع سليم تمـــاما ومفيد وضروري ومربح ، سحب عملية تمويله لاسباب سياسية · وبعد ذلـــــك عرض المشروع الذي درسه الغرب على السوفيات «فقتلوه» بحثـــــا ايضا ووافقوا عليه ، مع اضافة تعديلات تفصيلية ·

ولذلك فقد كانت الحملة تتجاوز حتى عملية ضـــــرب الصداقة المصرية السوفياتية ، او التشكيك في قيمة المساعدات السوفياتية · انها حملة لضرب السد العالي كانجاز مصري وموضع فخر كل انسان · ان ضربه يعني ضرب الاحساس المصري بالقدرة على الانجـــــاز وتحدي العراقيل · نعم هناك بعض المشروعات التي كان يجب ان تستكمل قبـل او بعد الانتهاء من السد العالي ، لتجنب بعض الاثار الجـــانبية ، لكن هذا لا يبرر ما حدث ·

عدم الفهم

ـ اليس من الغريب بعد سنين طويلة من العلاقات ان يبدو احيانا كاننا لا نفهم السوفيات وانهم لا يفهموننا ؟

قال محمد حسنين هيكل :

لقد سارت الامور احيانا بنوع من الفهم الطبيــعـــــي او الغريزي لضرورة وأهمية العلاقات · كانت العقلانية لم تبرز فـــي هذا الفهم بدرجة كافية ، لقد حدث التعاطف الطبيعي والغريزي···

وراء هذ االتعاطف اسباب حقيقية وليست غيبية · لكن بعـــــض هذه الاسباب فعلي او محسوس والبعض الاخر متصور من جانبنا او مـن جانب الاتحاد السوفياتي · والخطأ كما قلت اننا لـــــم نجلس على مستويات انسانية وفكرية متعددة الى جانب مستويات القيادة · لكـن هذا لا يعني في النهاية اننا لا نستطيع تجاوز هذه الامور · وعلينا ألا ننسى ان العلاقات السوفياتية لا تتجاوز عشرين عاما ، وان درايـــة السوفيات بمنطقتنا لا تتجاوز هذه الفترة · واذا كنا نقـــارن احيانا اسلوب الغربومعرفته بالمنطقة ، فاننا الى جانب اختلاف الهدف بيـن الشرق والغرب نذكر ايضا ان معرفة الغرب بالمنطقة هي حصيلة ما يقرب من ثلاثة قرون !

ـ هل تعتقد انه من الممكن ان يكون هناك توازن في علاقاتنا مـــع أميركا والاتحاد السوفياتي ؟

قال محمد حسنين هيكل :

ان المسألة تتوقف على المقصود من كلمة توازن · فالبعض يقـول بشكل مبسط نحن مع هذا او ذاك · وليس هذا توازن بالطبع · اننا يجب في كل الظروف ان ننظر الى الاتحاد السوفياتي على أساس انــــه دولة تهتم بأمنها ، وانها احدى الدولتين الاعظم ، وانها تتحرك من أجل انتصار الثورة العالمية · وليست هناك قضية من قضايا الحرب والسلام تحـل الا بحد ادنى من التعاون بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ·

ولعل الخطأ الذي حدث في ما يتعلق بمشكلة الشرق الاوسط هو ما خطر للاميركيين بالحماقة ان يستبعدوا الاتحاد السوفياتي نهائيا من الحل فتوقفت المشكلة ولم تتحرك ·

قبل اكتوبر ـ تشرين الاول ـ لم نكن نستطيع التوصل الـــى حل لان الولايات المتحدة كطرف كانت غير موجودة · فهل يمكن بعد حـــرب اكتوبر ـ تشرين الاول ـ ان استبعد من الحل الدولة التي تقدم السلاح

الذي نحارب به وتقيم علاقات وثيقة معنا ومع سوريا ومـــــع العراق والجزائر واليمن الديمقراطية وغيرها ؟

هل يمكن ان استبعد هذا كله واصل الى حل !

ان التوازن في السياسة الدولية يعني ان يكون لكل من الدولتين الكبريين دور · فليس هناك ما يدعو للقطيعة مع اميركـــا ··· هــذا خطأ ··· وفي هذه الحدود نتحدث عن التوازن ، واساسه مصلحتنا ·

والسؤال الاول بهذا الخصوص :

اين تكمن مصلحتنا في التنمية ؟

لقد كان الطريق ممهدا واكثر من ممهد أمام الاميركيين لمدة عام كامل بعد حرب اكتوبر ـ تشرين الاول ـ · وبدا كما لو ان الاميركيين واصدقاءهم همسادة او شبه سادة في المنطقة · فماذا فعلوا ؟ مـدى علمي انهم لم يقدموا مشروعا واحدا · أما ما خصصوه من مساعدات وهو ٢٥٠ مليون دولار فيتضمن صفقة قمح وشحومات وبعض السلـع الاخرى · ولا شيء يتعلق بمشروعات التنمية الحقيقية اي الصناعة · وهم لم يقدموا اي شيء من هذا القبيل في أي مكان ، حتى بالنسبة لمن هم أقرب اليهم او يدورون في فلكهم · فماذا فعلوا لفيتنام الجنوبية ، أو اندونيسيا الى أين اوصلوا تركيا مثلا ؟

وعندما نتحدث عن التوازن في هذه الحالة فنحن نعني ان كل طرف يأخذ دوره في المشكلة بقدر حركته وتأثيره في الازمة · فنحن نعطي دورا للولايات المتحدة الامريكية في حل الازمة على اساس عـــــلاقاتها مع اسرائيل وعناصر قوتها التي تساعد بها اسرائيل · وانا اقبل دورهــا هذا واضعه في حسابي وليس له علاقة بقضية الصداقة ·

ومن الناحية الاخرى فان الاتحاد السوفياتي له قدراته ومبررات وجوده كطرف احارب بسلاحه وبمعونته · كما ان له علاقات مماثلة مع

سوريا والعراق والجزائر وغيرها ...

اذن فالحديث عن التوازن يضع في الاعتبار .

١ ـ الحركة الدولية .

٢ ـ موجبات الحركة الدولية بالنسبة لكل طرف (حتى لو كانت عدائية) .

٣ ـ أين تكمن مصلحتنا .

وبهذا فان التوازن لا يعني التسوية بين موقف العدو والصديق . لانه لا يمكن ان أساوي بين جسر جوي سوفياتي لمساعدتي وجسر جوي أميركي لمساعدة اسرائيل .

عدم الانحياز

ـ يقول البعض احيانا ان عدم الانحياز يعني الموازنة او التسوية بين الاثنين ؟

ـ عدم الانحياز في رأيي هو موقف في كل قضية لا يتقيد بارتباط سابق . ثم كيف نقيم توازنا بالمفاضلة ؟ كيف افاضل بين واحد يقف معي واخر يقف مع عدوي ؟!

ـ لماذا لم تحاول من قبل ان تشرح اسباب المشاكل التي تتعرض لها العلاقات المصرية السوفياتية واسلوب تجنبها ؟

قال محمد حسنين هيكل :

لقد حدث اكثر من مرة ان كتبت عن عدم وجود حوار بيننا ، وعن اننا لا نصيغ مستويات السياسة السوفياتية . ولاننا لم نناقش ، فهم ايضا لم يناقشوا . وعندما ناقشت في بعض كتاباتي هذه الامور احسوا انه من نوع الهجوم ، رغم انني كنت اناقش من زاوية الحرص على

الصداقة · ولقد سبق ان قلت ان الاتحاد السوفياتي لديه اولويات هي فيتنام والامن الاوروبي وكوبا وهي مسائل في غاية الاهمية بالنسبة له ، وان الشرق الاوسط رغم أهميته للاتحاد السوفياتي ياتي في المرتبة الرابعة ، وكنت مقتنعا بما أقول · اذ ليس ما يمنع من ان تكون مشكلتنا هي الرابعة بشرط ان تكون الرابعة فعلا ، وان نتصرف على هذا الاساس ·

فالامن الاوروبي هو قلب الاتحاد السوفياتي ، وفيتنام لا بد ان تاتي في المرتبة التالية بسبب ظروفه كدولة اشتراكية ، وكوبا لها نفس الاهمية ·· لكن ما كتبته فهم بطريقة خاطئة بسبب انعدام جو الحوار والمناقشات المعمقة · ولو ان الجو كان مهيأ للحوار لما حدثت اي مشكلة؟

فهل حدث ان اقام الحزب الشيوعي السوفياتي والاتحاد الاشتراكي حوارا حقيقيا حول أهم القضايا المشتركة او الدولية ؟ ومتى حدث حوار من اي نوع على المستوى الثاني او الثالث من القيادات ؟ هل سمعنا عن مناقشات علمية وفلسفية وسياسية بين ممثلي الجامعات المصرية والسوفياتية ؟ ان الطابع الغالب على هذه المستويات هو تبادل الاعلام والخطب ·

التفاؤل والتشاؤم

– هل انت متفائل من توفر الظروف الموضوعية التي تسمح بنمو طبيعي للعلاقات المصرية السوفياتية ؟

قال محمد حسنين هيكل :

ان مبعث التشاؤم لدى البعض نابع مما كان يبدو على السطح انه ردة او ما يشبه الردة · لكن ما حدث في سبتمبر (ايلول) الماضي اثناء مناقشات ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي – يعد مؤشرا هاما لعلاقات القوى في مجتمعنا ·

واذا كان قد تزايد دور بعض القوى التقليدية في العالم العربي فلا بأس من ذلك ما دمنا نعرف حدود هذا الدور ، ولا بد ان ننسق معها في هذه الحدود بشرط الا يملي احد علينا موقفنا ، واذا كانت هذه القوى تشكو في الماضي من اننا كنا نملي عليها احيانا بعض المواقف ، فعليها الان الا تحاول ان تملي على القوى التقدمية مواقف معينة ٠

لقد تخيلت بعض القوى انها تستطيع ببعض الضغوط والاوهام ان تضغط على مصر لكي تتراجع التجربة المصرية الى الخلف ، لكن حدثت بعض لحظات الحقيقة اثناء مناقشات سبتمبر (ايلول) وخرجت قوى العمال والفلاحين والطلبة والمثقفين رغم انها غير منظمة لتؤكد تمسكها بالخط التقدمي الذي نتبعه ابتداء من عام ١٩٥٥ حتى الان ٠

انني اتصور ان قوى التقدم في مصر لا يمكن ان تضرب او تكبح٠ من الممكن ان توضع على حركتها بعض المعوقات لكن من المستحيل ان تعود مصر اجتماعيا الى الوراء ٠ هناك حقائق لا يمكن تجاهلها٠ لقد كان عدد العمال قبل الثورة لا يتجاوز ٢٥٠ الف عامل وهم الان مليونان ونصف مليون ٠٠٠

ثم لقد ربينا الشباب لمدة خمسة عشر عاما على مبادىء الميثاق ، ورأى مصالحه تتفق مع هذه المبادىء ، ومن غير الممكن زعزعة ثقته بمبادئه ومصالحه ٠

ان الرموز التي تحاول الوقوف ضد حركة التقدم في مصر رموز مكروهة دون استثناء ٠ وبالتالي فان الحركة مستمرة حتى لو ابطأت خطواتها بعض الشيء ٠

ومن هنا فانني متفائل بمستقبل العلاقات المصرية السوفياتية ٠

ولست ارى بديلا اخر امام حركة القومية العربية بمضمونها الاجتماعي والسياسي سوى الاتحاد السوفياتي ٠

ان الاتحاد السوفياتي هو الصديق الاول بلا جدال ٠

واذا نظرنا الى الامر حتى من زاوية الامن فقط بالنسبة لنا فضلا عن ضرورات التنمية ، فليس هناك بديل · ذلك ان نوع «السلام» الاسرائيلي يختلف تماما عما نتصوره من سلام حقيقي · ومن ثم فنحن في حاجة الى الاتحاد السوفياتي · وقد نستطيع ان نحصل على أسلحة من بريطانيا او فرنسا ، لكنها لن تتجاوز بعض الطائرات او الدبابات والاسلحة المحدودة· انهناك بلدين في العالم حتى الان يستطيعان ان يبنيا نظاما دفاعيا للاخرين· وهما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية· وفارق كبير بين ما يتطلبه بناء نظام دفاعي وبين مجرد الحصول على بعض الاسلحة من هنا او هناك ·

لن يعطينا احد نظاما دفاعيا كاملا سوى الاتحاد السوفياتي ، وليس هناك طريق اخر ·





ملحق

قضية الديون المصرية للاتحاد السوفياتي



قضية الديون المصرية للاتحـاد السوفيأتي

بقلم مصري تقدمي

بدأت هذه القضية بعد حرب اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ بحجة المتاعب الاقتصادية الناتجة عن الحرب : تأجيل سداد الديون المصرية للاتحاد السوفياتي عشر سنوات تكون بمثابة فترة سماح لا يدفع فيهـا أي شيء للاتحاد السوفياتي ، وعلى أن يبدأ السداد بعـد ذلك بحيث تسدد ديون القروض الاقتصادية على ١٠ سنوات ، وديون القروض العسكرية على ٤٠ عاما ٠ اي ان السداد يتم في حوالي نصف قرن من الان (عام ٢٠٢٥ م) ٠

وتنقسم هذه الديون الى ديون القـروض الاقتصادية والديون العسكرية ٠

وتمثل الديون الاقتصادية القروض التي قدمها الاتحاد السوفياتي لمصر لانشاء (١٩٢) مشروعا اقتصاديا (صناعيا في الاساس) آخرها في مايو ١٩٧٥ لزيادة حجم مجمع الالمونيوم في نجع حمادى والطاقة الكهربائية ٠ وكثير من هذه المشروعات تم التعاقد عليها بعـد عام ١٩٦٧ في محاولة من الاتحاد السوفياتي لدعـم الصمود المصري

اقتصاديا وعسكريا · ومن أهم هذه المشروعات (بعد عام ٦٧) مجمع الحديد والصلب في حلوان ـ مجمع الالمونيوم ـ الترسانة البحرية في الاسكندرية ، مشروعات كهربة الريف ···

ويتم سداد هذه الديون على أقساط سنوية من جزء من انتاج هذه المشروعات نفسها بعد بدء تشغيلها ، وعن طريق تصدير المنتجات المصرية للاتحاد السوفياتي ·

ولكي نكون في موقع يمكننا من قول كلمة حق حول هذا الموضوع الذي يمس علاقتنا بالحليف الاستراتيجي لحركة التحرر الوطني المصرية والعربية « الاتحاد السوفياتي » لا بد من رؤية كاملة للحقائق المتعلقة بهذا الموضوع وهي :

١ ـ منذ نهاية حرب اكتوبر والتي صاحبها اعلان سياسة الانفتاح كأساس للاقتصاد المصري والاسراع في تنفيذها الى حد اعفاء رئيس الوزراء السابق « عبد العزيز حجازي » بحجة عدم تحرك وزارته بالسرعة اللازمة ·· تضاعفت الديون المصرية للعالم الخارجي من حوالي ٢٠٠ مليون جنيه عام ٧٠ ـ ١٩٧١ (عام حركة التصحيح الشهيرة) الى ١٤٠٠ مليون جنيه عام ١٩٧٥ · وهو أمر منطقي في ظل سياسة الانفتاح والسياسة الاقتصادية الخطرة التي تعتمد في تمويلها على التسهيلات المصرفية من الدول والمؤسسات المالية الرأسمالية في العالم الغربي والتي تصل سعر الفائدة عليها الى ١٨½٪ وبعد ان كان الاقتراض الخارجي يزيد من مواردنا بحوالي ٢٠٪ في سنوات الصمود والاستعداد للحرب ، اصبح اليوم مطلوبا كي يزيد مواردنا بما يفوق ٥٠٪ · ولذلك كان على الدولة ان تدبر من الموارد الاجنبية في عام ١٩٧٥ فقط بما يفي بالعجز البالغ قدره ٢٥٩٦ مليون جنيه · ولا تمثل اقساط الديون والالتزامات المستحقة للدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي خاصة الا نسبة ضئيلة جدا من الديون التي تدفعها مصر سنويا · فحجم القسط المدفوع للاتحاد السوفياتي (الدين والفوائد) كان ٤٤ مليون جنيه عام ١٩٧٣ وحوالي ٧٠ مليون جنيه عام ١٩٧٥ · وهي نسبة تمثل ٦ ٪ من حجم الالتزامات الاجنبية

الواجبة السداد عام ١٩٧٥ والتي تصل الى ١٢٣٥ مليون جنيه ٠٠ ٠
علما بان الديون المصرية للاتحاد السوفياتي مقابل مشروعات انتاجية ولا يدفع عليها كفوائد الا ٢½٪ بينما تصل فوائد القروض قصيرة الاجل للدول الغربية حوالي ١٨½٪ ، وللقروض العربية والايرانية ما بين ٥٪ و ٩٪ (السعودية – ايران الكويت) ومن الملفت للنظر ايضا ان فوائد القروض العربية والايرانية الجديدة الواجبة السداد سنويا تصل الى ٦٠ مليون دولار (الفوائد فقط وليس اصل الدين!)

٢ – ان فترة السماح التي تطالب بها الحكومة المصرية الاتحاد السوفياتي هي فترة سماح اضافية ٠ ففي كل الاتفاقات الاقتصادية والعسكرية المصرية السوفياتية هناك فترة سماح ٠ فمثلا اتفاقية السد العالي الاولى بدأ سداد القرض فيها بعد ٥ سنوات ٠ والاتفاقية الثانية يبدأ السداد بعد ١٠ سنوات ٠ واتفاقية مجمع الحديد والصلب بعد عشرة أعوام وهكذا ٠٠

٣– بالنسبة للديون العسكرية فهي كلها بعد ١٩٦٧ ٠ فقد تنازل السوفيات عن الديون العسكرية مرتين ٠ الاولى عندما تنازلوا عن ديون الاسلحة المصرية الثي استخدمت في حرب اليمن ٠ والثانية عن ديون الاسلحة التي فقدت خلال حرب ١٩٦٧ ٠

٤ – ان مصر تسدد هذه الديون عن طريق تصدير بضائع غير تقليدية مثل « المصنوعات الجلدية » والاثاث ، والاقمشة والمشروبات الروحية (النبيذ والبيرة) ومنتجات زجاجية (مثل كريستال عصفور) ٠ وهذه الصناعات اغلبها صناعات حرفية تنتج في مصانع صغيرة (قطاع خاص) وليست على مستوى تكنولوجي عالي ٠ وهي صناعات لا تستطيع ان تجد اصلا سوقا رائجة في البلدان الرأسمالية الغربية لانها لا تقدر على المنافسة في هذه البلاد بدون دعم حكومي يخفض اسعارها ، يتحملها في النهاية دافع الضرائب المصري

وفي عام ١٩٧٥ تم سداد ٧٠ مليون جنيه للاتحاد السوفياتي منها

٥٠ مليون جنيه على صورة سلع غير تقليدية (خمــــور ـ صناعات جلدية ـ أقمشة ـ ملابس جاهزة) ٠

وتشير الاحصاءات الرسمية ان السوفيات يأخذون ٩٠ ٪ مــن صادرات الاحذية المصرية ٠ ويذكر تقرير وزارة التخطيط في اغسطس ١٩٧٥ بالحرف الواحد ٠٠ « ومؤدى الجدولة من الناحية العملية ان تقل صادراتنا الى تلك الدول ٠٠٠ ومن اجل هذا تجــدر الاشارة الــى اثار جدولة الديون على الهيكل الانتاجي في المجتمع ، وخاصة تلــك القطاعات التي ستتأثر حتما نتيجة نقص صادراتها الى الكتلة الشرقية، كما هو الحال بالنسبة لصناعة الاحذية والاثاث بل وقطاع القطن الخام نفسه ٠ وعلى سبيل المثال هل يؤدي نقص هذه السلــع الــى الكتلــة الشرقية ان تغمر بها الاسواق العالمية فينخفض سعرها انخفاضــــا يفوق ما هو حادث فعلا نتيجة الكساد الاوربي والياباني ؟ وما هـــي مدى خسارتنا نتيجة لذلك ؟ وبالمقارنة «بالمكاسب» التي نرجوها مــن اعادة جدولة الديون مع الدول الشرقية ٠

ان هذه الحقائق الدامغة تجعلنا نقول بثقـــة ان قضية جدولة الديون قضية مفتعلة من بعض عناصر في السلطة البرجوازية المصرية المندفعة الى أحضان الاستعمار والامبريالية الامريكية وحلفائهــــا ، هدفها تشويه وجه الاصدقاء وترويــج اتهامــــات كاذبة لهم وتقليص علاقاتنا بهم وهو ما تحقق فعلا بتخفيض تجارتنا الخارجية مع الاتحاد السوفياتي (استيرادا وتصديرا) من ٣٧٠ مليون عام ٧٥ الى ٢٠٠ مليون في الاتفاق الاخير الذي وقع في ديسمبر ١٩٧٥ بالقاهرة ، بعد فشل الجولة الثالثة من مباحثات الديون والتي انتهت في ديسمبر ٧٥٠ (الجولة الاولى في فبراير والثانية في يوليو ١٩٧٥) ٠

وان السلطة في سياستها هذه تضرب القطاع الخاص (المنتــج) اي البرجوازية الصناعية الوطنية لحساب اعمال القطاع الخـــاص الطفيلي (غير المنتج) من وسطاء ووكلاء للشركات الاجـنبية وتجار جملة مستغلين ومقاولين ، تتكدس عندهم الاموال لتوجه ، ليس الــى اعادة الاستثمار في قطاعات منتجة للسلع وانما الى الاسراف البذخي والانحلال الخلقي والاجتماعي ٠

فهرســت

الصفحة



صدر من سلسلة دليل المناضل

أ - في النظرية :

١ - شروح في المادية التاريخية
لجنة التثقيف الجماهيري في الحزب الشيوعي
الكوبي

٢ - الماركسية والطبقات الاجتماعية
نيكوس بولانتزاس

٣ - الماركسية والمسائل الجنسية عند المرأة
ترجمة : عبد الله اسكندر

ب - تجارب اشتراكية :

١ - مقالات فيتنامية
لي ذوان ، جياب

ج - تجارب حزبية :

١ - المركزية الديمقراطية عند ماركس وانجلز
لجنة التثقيف الجماهيري في الحزب الشيوعي
الكوبي

٢ـ الحزب الشيوعي الاندونيسي ـ الاخطاء والدروس ـ
سودارسو ـ ايديت

د ـ المكتبة الادبية :

١ ـ الفنون والثورة ـ ملاحظات حول العمل الادبي ـ
برتولد بريخت
٢ ـ الواقعية الاشتراكية : المنهج والاسلوب
ي. غروموف

هـ ـ تجارب حركات التحرر الوطني :

١ ـ دفاتر الحرب الكونغو
محاضرات تثقيفية للمقاتلين

٢ ـ غينيا بيساو وجزر الرأس الاخضر
تجربة المناطق المحررة

٣ ـ كيوتشي قرية مقاتلة تحت الارض
قاعدة ثورية في فيتنام

و ـ المكتبة الاقتصادية :

١ ـ ما هو الاقتصاد السياسي ؟
روزا لوكسومبورغ

٢ ـ الرومانسية الاقتصادية
لينـين

ز ـ دراسات عربية :

١ ـ قضايا الصراع الاجتماعي في الريف الاردني
سعيد جواد

٢ ـ الازمة اللبنانية والوجود الفلسطيني
محمد كشلي

صدر عن دار ابن خلدون

١ ـ مئة قصيدة حب نيرودا

ترجمة محمد عيتاني

٢ ـ البيان الشيوعيفي أول ترجمة دقيقة وأمينة
مع قاموس ماركسي بالمصطلحات

العفيف الاخضر

٣ ـ الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية

فرد هوليداي

٤ ـ النفط والتحرر الوطني في الخليج العربي وايران

فرد هوليداي

٥ ـ المرحلة الانتقالية في سورية (عهد الوحدة)

الدكتور بدر الدين السباعي

٦ ـ الادب والايديولوجية في سورية

بو علي ياسين ـ نبيل سليمان

٧ ـ الثورة الصومالية

ستالوزا ـ ترجمة ابراهيم
العريس

٨ ـ اسرائيل والتسوية

د· سلمان رشيد سلمان

٩ ـ اليسار في اسرائيل

د· سلمان رشيد سلمان

١٠ ـ التراكم على الصعيد العالمي

د· سمير أمين

١١ ـ الجيش والحركة الوطنية

فريق من الباحثين
باشراف الدكتور انور عبدالملك

١٢ ـ الاشتراكية أو البربرية

رينيه ديمون ـ ترجمة حسن قبيسي

١٣ ـ الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل

اميل حبيبي

١٤ ـ الوضع اللبناني والمهام المرحلية للحركة الشعبية
منظمة العمل الشيوعي



هذا الكتاب

اثناء الحملة على السوفيات في مصر رأى ثلاثة من كتاب مصر هم محمد عودة وفيليب جلاب وسعد كامل أن يجروا حوارات متعددة مع عدد من الذين رافقوا العلاقات المصرية السوفياتيــة من موقع المسئولية او الأطلاع في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

وهكذا إنصرف الكتاب الثلاثة فعلاً الى اجراء حوار محدد مع هؤلاء المسئولين والمطلعين ، فكان هذا الكتاب الذي جمع شهاداتهم ، وهي وثائق حية وشهادة من داخل العلاقات المصرية السوفياتية نفسها .

« الناشر »



الثمن ٦٥٠ ق. ل. او ما يعادلها